
علم الحروف
فى الإسلام
تأليف
بيير لورى
ترجمة
داليا الطوخى


علم الحروف
في الإسلام

- الكـتاب : علم الحروف فى الإسلام

La science des lettres en Islam

- الكاتـب : بيير لورى Pierre Lory

- المترجمة : د. داليا الطوخى

- مراجعـة : د. حنان بهى الدين منيب

- يصـدر هذا الكتـاب باللغـة العـربيـة بإذن خـاص من دار الـنشـر الفرنسية Dervy ويطبـع منه ثلاثة آلاف نسخة.

- الطبعة الأولى : ٢٠٠٦

علم الحروف

في الإسلام

تأليف

بيير لوري

ترجمة

داليا الطوخي



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٦

الغلاف والإخراج الفنى :

صبرى عبد الواحد



شكل زخرفى للبسملة بخط الثلث

المقدمة

تعتمد دراسة الأديان، فى المقام الأول، إما على الحديث أو الاستماع أو القراءة من أجل البحث عن مفهوم هذه الأديان بواسطة الكلام أو اللغة، ومما لا شك فيه، أن اللغة ولاسيما الكلمة الدينية ستكون، فى جميع الأحوال، هدفنا الرئيسى فى هذه الدراسة التى لن تخلو بطبيعة الحال من صعاب سنقوم بالكشف عنها فى حينها. فهدف النصوص، مثلها مثل الطقوس الدينية، هو أولاً البحث عن مدخل لفهم ما يستتر وراء الظواهر، أى المعنى الذى يكمن وراء اللغة المتداولة، ثم الاستعانة بالرمز فى تناول الموضوعات التى يعجز الوصف عن شرحها مثل الموت وتبعاته بالنسبة للأحياء.

ويعد انتشار الخطاب البسيط العامى، فى مجال الحديث عن الأديان، أحد الصعوبات التى تواجه دارس اللغة الدينية. فقد بات هذا النوع من الخطاب شائعًا إلى حد أن الحديث عن الدين صار بصيغة المفرد، وقد أدت المشكلات المعاصرة إلى ظهور نوع من الخطاب الدينى يتميز بلغة موجهة وعالمية ومتناسقة تهدف إلى

البحث عن وحدة الثقافات والعرقيات البشرية مما كان له الأثر الكبير فى دمج ما يتميز به كل نظام دينى وذلك من أجل تأكيد وحدة جوهر جميع الأديان. ولقد انتشر هذا النوع من الخطاب فى العصر الحالى حتى أنه أصبح مثاراً للتأمل والتفكير.

إن علم الأديان الذى يتم تدريسه منذ أكثر من قرن فى المجال الجامعى، يهدف فى المقام الأول إلى التعمق فى التفكير فى الأديان والمفاهيم التى ترتكز عليها، وتتسع فائدته بسبب دراسته للمذهب التوفيقى بين جميع الأديان.

بيد أنه عند البدء فى إجراء هذه الدراسة، وجدنا أن عملية التقارب بين الأديان قد نتج عنها بعض اللبس ولاسيما المقاربة بين الديانة المسيحية والإسلام؛ وذلك لأن الديانتين يتم دراستهما من منظور واحد أى بوضع «محمد» فى مرتبة تالية للمسيح، والقرآن فى منزلة موازية للإنجيل، غير أن هذا التقارب قد يكون خادعًا، فلا وظيفة كل من هذين النصين المقدسين واحدة ولا المقارنة بين محمد والمسيح صحيحة على جميع المستويات، لأن اللغة والكلمة الإلهية يتم قراءتها فى كل من الديانتين بشكل مختلف.

فدور اللغة فى الديانة الإسلامية هو دور محورى لأن وجود الله فى صورة كلمة موحاه، يظهر فى القرآن بشكل أساسى. فالقرآن الذى نزل باللغة العربية، يشكل، بالنسبة للمسلمين مجموع ما تلقاه محمد عن ربه فى صورة كلمات موحاه بطريقة مباشرة. إن القرآن

بمجموع آياته التى يبلغ عددها ستة آلاف ومائتين وست و ثلاثين آية يمثل كما ذكر لويس ماسينيون(١):

«عملية تلقين تمت بصورة فائقة للطبيعة، قام بحفظها الرسول الذى تتلخص رسالته فى نقل المخزون فى سريرته إلى البشر». إن هذا التعريف يعنى أن دور النبى هنا ليس سوى دور ناقل للرسالة الإلهية دون أن يكون له أى تدخل فى صياغة الآيات.

لقد وصف المؤرخون الذين قاموا بتدوين سيرة النبى الذاتية، كيفية نزول الوحى عليه بصورة مباغتة، فقد ذكروا أنه كان يسقط على الأرض مغشياً عليه، تعتريه رجفة شديدة، وعندما يعود إلى الوعى، يقوم بتلاوة الآيات التى أوحيت إليه إلى الأشخاص الحاضرين.

فالقرآن، إذاً، بالنسبة للمسلمين يعد الصورة الأساسية لوجود الله على الأرض؛ وبسبب غياب الأشخاص أو الأماكن المقدسة، فإن المظهر الوحيد للتجلى الإلهى فى الإسلام هو الوحى القرآنى. فالاستماع إلى القرآن ثم تلاوته، يعنى بالنسبة للمسلم المؤمن، أن يضع ذاته فى الموقف نفسه الذى كان عليه الرسول عند تلقيه الوحى. بل إن الأمر قد يتعدى ذلك، فهو يشعر بأنه أمام الحضرة الإلهية، لذا فهو يندمج مع هذه الحالة الروحانية الخاصة.

وعادة ما يخطئ الغربيون فى فهم عملية حفظ المسلمين للقرآن عن ظهر قلب حتى دون فهمهم الدقيق لمعانيه، إذ يرون فيها عملية طقسية ميكانيكية لا معنى لها، ولكننا إذا ما نظرنا إلى قلب المسلم

على أنه حافظة للحضرة الإلهية، قد نستطيع فهم معناها الحقيقى بشكل أفضل. فالاحتفاظ بالقرآن فى سريرة المسلم بصورة جزئية أو كلية، هو نوع من الاتصال بالله، كما يعد، بشكل أو بآخر، جوهر التجربة الروحانية، ومن هنا، فإن الإيمان فى الاسلام يتم التعبير عنه إما بواسطة بعض الصلوات القصيرة أو فى شكل حلقات ذكر يتم فيها ترديد الأدعية أو الأسماء الإلهية أو الآيات القرآنية فى صورة جماعية.

بيد أن هذا المظهر الإيمانى يختلف فى الديانة المسيحية. فالمسيح هو الكلمة بمعناها المطلق وليس بمعناها اللغوى الظاهرى. فعندما نتكلم عن المسيح فنحن نتكلم عن الله الذى به تكون كل شىء (إنجيل يوحنا «١» ١-٣)، نتكلم عن كلمة تنبع منها مجموعة من المفاهيم الثرية بالنسبة للوثنيين أو اليهود فى العصر اليونانى، نتكلم عن حكمة إلهية انتشرت فى العالم، وشكل للوجود الإلهى فى الكون، وأيضاً عن نموذج لكل ما هو جميل ومتناسق وشرعى وعادل. فالمسيح هو، فى النهاية، الكلمة التى تجسدت وأصبحت موضوع الوحى الإنجيلى.

إن الكتاب المقدس أو الأناجيل لم تأت سوى لتوضيح أو لتفسير الحدث. فهى كنصوص، ليس لها الدور نفسه الذى يلعبه النص المقدس فى الديانة اليهودية أو الإسلام؛ وذلك لأن النص المقدس فى الأناجيل قد يخضع للفحص أو للتحليل أو التأمل بهدف توسيع نطاق أوجه الرسالة المسيحية الاساسية وإعلان أن الله قد تجلى فعلياً فى الكائن البشرى الذى تلقى الرسالة.

ومن هنا يتضح أن مدلول كل من الكلمات التالية: (كلمة - رسالة - وحى) يختلف فى كل من الديانات اليهودية والمسيحية والإسلام.

«فإذا كانت المسيحية، كما ذكر ماسينيون، فى جوهرها هى التصديق بالمسيح ومحاولة اتباعه وتقليده، حتى قبل التصديق بالإنجيل، فإنه فى المقابل، فى الإسلام، تأتى ع -لية الإيمان والتصديق بالقرآن فى المرتبة الأولى حتى قبل اتباع سنة الرسول».

لقد تفجرت فى الإسلام كثير من القضايا الدينية نبعت من محاولة الفهم لدور اللغة فى تأويل الكلمة الإلهية، ومن هنا، نشأ الجدل فيما يتعلق بقضية الإنسان هل هو مسيَّر أو مخيَّر؟ هل هو صاحب القرار فى تحديد مصيره أم أن الله هو الذى قد حدد هذا المصير مسبقاً؟

والإجابة على هذا التساؤل تعتمد، فى المقام الأول، على كيفية تفسير النص القرآنى، حيث إن هناك عددًا من الآيات التى إذا ما فسرت على أن بها شيئًا من التناقض، قد يساعد ذلك على اختيار أحد شقى هذا السؤال. فالآيات التجسيمية التى تتحدث عن «يد الله» و «عين الله» وجلوسه على العرش أو عن غضبه، تفجر قضية مستويات اللغة ولاسيما دقة الصورة المجازية، وبالإضافة إلى ذلك، فإن طبيعة النص القرآنى كانت مثاراً لجدل عنيف عندما طرح التساؤل الآتى: هل القرآن مخلوق، هل نزل وحيه على محمد تباعًا

طبقًا لأحداث تاريخية محددة؟ أم أنه كلمة غير مخلوقة، موجودة بصورة أبدية سرمدية عند الله؟

هنا يكمن التحدى الأكبر والذى قد يؤثر على طريقة تفسير النص المقدس، بل قد يؤثر على مدى القبول من عدمه للتفسير التطورى أو التاريخى له، إن جماعة المعتزلة التى تتبع المنهج العقلانى، كانت أقرب للتصديق بالفكرة الأولى. أما أهل السنة، فهم بصفة عامة، يؤمنون بالرأى الثانى وهو أن القرآن غير مخلوق.

ومن هذا المنطلق، فإن القرآن كما نزل على الأرض، يصبح جزءاً من الكتاب السماوى ونموذجًا ثابتًا للكلمة الإلهية كما يتضح من قوله تعالى:

﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الزخرف آية ٢-٤).

﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ (الرعد آية ٣٩).

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (آل عمران آية ٧).

فمنذ اللحظة التى ندخل فيها عالم الروحانيات، تتخذ هذه الاختلافات حجمًا ملموسًا بشكل ملحوظ وفى ذات الوقت، تأخذ الكلمة الشكل الرئيسى لنزول الله على الأرض لكى تصبح المعبر

الذى تستطيع الأرواح بواسطته الانتقال إلى المستويات الروحانية السامية.

وكما هو معروف، فإن إقامة الصلوات أو ترديد الأسماء الحسنى بشكل جهرى، يعد من الطقوس المميزة للتيارات الروحانية الإسلامية أو الصوفية والتى يطلق عليها اسم (الذكر) أى ذكر اسم الله والتذكرة بمعرفة البشر الفطرية بوجوده كما فى قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴾ (الأعراف آية ١٧٢). فالعالم الإسلامى كله يمارس هذه الطقوس، بورع وخشوع شديد بدءاً من بلاد المغرب و السنغال غربًا حتى اندونيسيا شرقاً .

أما بالنسبة لأتباع الطريقة الصوفية، فإن هذه الطقوس لا تستمد فعاليتها بسبب الكم أو بسبب ترديد الذكر مئات أو آلاف المرات، ولكنها تنبع من معنى كل كلمة فى حد ذاتها.

وعلى سبيل المثال، فإن تردد اسم من أسماء الله المذكورة فى القرآن مثل «يا حى - يا كريم» يعنى استحضار شكل محدد للوجود الأعلى أى صفة إلهية محددة.

وأى شخص حتى وإن كان حديث العهد بالتصوف يمكنه مباشرة عن طريق نطق الكلمة أو الصفة الإلهية، أن يتعايش مع هذه الحالة الروحانية طبقاً لحالته و صفائه النفسى والروحانى.

وانطلاقاً من هذا التمهيد، نستطيع أن ندرك أننا بصدد عملية تعميق للمعنى الباطنى للكلمة الإلهية الذى يشبه علم القبَّالة أو التصوف اليهودى ولكن على الطريقة العربية.

فإذا كان القرآن هو الدليل على الكلمة الإلهية الأزلية السرمدية، فمن المفترض أن تكون لكل آية فيه بل وكل حرف دلالة غير متناهية المعانى، فكل حرف وكل آية يمكن أن يشكل جسراً يصل المسلم المؤمن بحقائق ما وراء الطبيعة ويساعد على كشف النقاب عن مصيره الكونى.

وهدف هذا العمل هو فتح نافذة على علم الحروف الباطنى الذى يشكل امتدادًا طبيعيًا للاهتمام الذى غدا واضحاً تجاه اللغة القرآنية. فهناك فى الواقع نوع من التقارب الجوهرى بين الفكر الإسلامى وعلم الروحانيات، ونلمس هذا التقارب، على مستويات مختلفة ومتدرجة، فى مجمل الثقافة الإسلامية وكذلك فى العلاقة بين هذه الثقافة وعلم الفلسفة، وعلى الرغم من اهتمام الفلسفة فى عصرنا الحالى بالقضايا المتعلقة باللغة، فإنه لن يخطر مطلقاً بفكر أى فيلسوف أن يتأمل القيمة الرمزية للحروف، غير أنه فى العصور الوسطى الإسلامية، أى فى عصور ازدهار الفلسفة الإسلامية، لم يكن الأمر كذلك، فقد كان موضوع الصلة المشتركة بين حروف الهجاء التى تعد انعكاسًا للكلمة الإلهية والمعطيات الكونية، مثارًا لاهتمام جميع المفكرين والفلاسفة وإن اختلفوا فيما بينهم فى تعريفه.

وفى هذا الصدد، سوف نقوم فى هذه الدراسة بتحليل نصين تناولا دراسة علم الحروف: الأول هو (رسائل إخوان الصفا) فى القرن العاشر والتى ظهرت عندما انتشرت الرغبة الطموحة فى توحيد المعرفة من أجل إدماج بعض المعطيات الخاصة باللغة العربية، وتأويل القرآن طبقاً لمنهج تحليلى أفلاطونى وفيثاغورثى حيث يلعب فيه الاسم وتكوينه الرقمى المجرد دورًا محوريًا.

«يرى إخوان الصفا، كما أوجز ماركيه(٢)، أن العدد هو أساس الخلق، وفى الوقت ذاته هو الرمز الذى يساعد على فهم عملية خلق الكون».

أما العمل الثانى فهو دراسة قصيرة لابن سينا كانت تعد عملاً هامشياً فى فكر الفيلسوف الكبير ولكنها فى الحقيقة، جديرة بالاهتمام لأن الفكر الباطنى فى أعمال ابن سينا لا يزال يحوى الكثير من الجوانب التى لم تكتشف بعد(٣).

ومن ناحية أخرى، فإن العلاقة بين علم الحروف والسحر تحتاج أيضاً لكثير من الإيضاح، فقد ظهرت أعمال كثيرة(٤) باللغة العربية تناولت دراسة فنون السحر والتنجيم تسمى علم الطلاسم، وقد اعتمد هذا العلم فى بداية الأمر على فنون السحر القديم عند اليونان وقبائل النبط ثم طغى عليها التيار الإسلامى شيئاً فشيئاً على مر العصور، إن التعويذات السحرية من شأنها استحضار الأرواح السماوية وربطها بالعالم السفلى بصلة مادية، وهو الطلسم الذى استبدل تدريجياً بالأسماء الإلهية والحروف القرآنية، وتعد

مؤلفات (البونى) دليلاً على هذا التطور الذى طرأ على فنون السحر، وقد تبدو النصوص التى يتضمنها كتاب (شمس المعارف) للبونى للوهلة الأولى، أنها تجميع عشوائى لبعض فنون السحر الغامضة، ولكن فى حقيقة الأمر، فإن هذا العمل لا يقدم وصفات سحرية ساذجة، بل هو يرتكز على علم كونى متناسق محوره فكرة عامة هى أن هناك تدفقًا إلهيًا روحانيًا قد جاء ليغمر الكون ينظمه ويوجهه الحروف والأسماء الإلهية، ويستطيع المحققون فى هذا العلم بواسطة الأوفاق، أن يتحكموا فى الكون كيفما يشاءون.

وهناك علاقة وثيقة تربط علم الحروف بعلم الروحانيات؛ فبواسطة علم الروحانيات يتم تحويل التكوين الداخلى النفسى للإنسان، والأبحاث التى نشرت عن أصل الحروف وتسلسلها وطرق تركيبها توضح وتفسر هذه التغيرات الباطنية، بل إن هذا العلم قد يؤثر على العملية التحولية طبقاً لطريقة تفسير الحرف، وفى هذا المجال، يعد (ابن عربى) عن حق أحد أهم الكُتَّاب الذين تعمقوا فى هذا العلم وكتابه الموسوعى (الفتوحات المكية) يعج بكثير من الإيضاحات عن علم الحروف.

إن الصلة المشتركة التى تربط الأبواب المختلفة لهذا الكتاب، هى اعتقاد ابن عربى الراسخ بأن الكون كله، سواء الكون الكبير العلوى أو الكون الصغير السفلى، تحكمه منظومة واحدة وهى منظومة الكلمة الإلهية، وأن اللغة البشرية فى صورتها المقدسة تلائم هذا الخطاب الكونى[٥] فالقرآن هو التعبير عن الشكل الجوهرى

الباطنى للعالم، والعالم ليس سوى قرآن عظيم الاتساع، ولسنا هنا بصدد رؤية مجردة أو جامدة للأشياء، فلنتذكر السمة الشفهية للوحى القرآنى، وأن القرآن لم يتم تدوينه فى حياة النبى لا بصورة جزئية أو كلية. بل أن «النبى محمد» لم يترك لأصحابه اى أمر بتدوينه، فظلوا يتناقلونه شفهياً بواسطة عدد من الحفظة الموثوق بهم، أما أول تدوين للنص القرآنى فقد كان فى عصر متأخر لم تتغير خلالها طرق تلاوته التى تشهد على عصر نزول الوحى، ولعل سبب هذا التردد فى تدوين النص القرآنى، يرجع إلى الرغبة فى الاحتفاظ وتثبيت قدسية التلاوة الشفهية.

إن الحروف فى التراث الإسلامى قوة حية وفعّالة، فالكلمات المقدسة تتحول مجازاً لملائكة، أى أن الكلمة المقدسة هى الله بشكل ملموس أو هى الطريق إلى الوجود الالهى كما ورد فى سورة البقرة التى تروى قصة آدم عليه السلام ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ(٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

(البقرة آية ٣٠-٣٢)

* * *

ملحوظات استهلالية

إن اللغة العربية التى تناولها بالدراسة والتأمل الكتّاب الذين سنتعرض لهم فى هذا العمل، تعد واحدة من مجموعة لغات يطلق عليها اسم اللغات السامية، فهى إذًا قريبة للغات السامية القديمة والعبرية والآرامية، وهناك بين كل لغة وأخرى جذور مشتركة، فإذا كانت التأملات حول حروف اللغة قد نشأت فى جميع الثقافات ولاسيما فى اللغة اليونانية، فإن ذالك يرجع إلى أن الانتقال من لغة سامية إلى أخرى كان يتم بشكل يتميز بسهولة كبيرة، وهناك عامل آخر يلعب هنا دورًا هامًا، وهو القيمة العددية للحروف، فمنذ بداية العصور الوسطى ومع ظهور حروف الهجاء الكنعانية أو السامية، اعتاد الساميون الشماليون كتابة الأعداد على شكل حروف الهجاء. وكان لكل حرف قيمة عددية طبقاً لتسلسل موحد فى مختلف اللغات السامية.

فنجد على سبيل المثال أن:-

حرف الألف: عدده ١

حرف الباء: عدده ٢

حرف الجيم: عدده ٣

حرف الدال: عدده ٤

حرف الهاء: عدده ٥

حرف الواو: عدده ٦

حرف الزاى: عدده ٧

حرف الحـاء: عدده ٨

حرف الطـاء: عدده ٩

حرف اليـاء: عدده ١٠

حرف الكاف: عدده ٢٠

حرف الـلام: عدده ٣٠

حرف الميـم: عدده ٤٠

حرف النون: عدده ٥٠

فكانوا يكتبون، على سبيل المثال رقم ١٢ (ى ب) ورقم ٣٢ (ل ج) ٠٠٠٠ إلخ

فـمـتى نشـأ هـذا العلم الروحـانى للحـروف؟ وفى أى ظروف تاريخيـة؟ ومـا العـلاقـة الفـعلية بينه وبين علم القبّالة أو التـصـوف اليهودى؟

والإجـابة على هـذه التسـاؤلات ليسـت بالأمـر اليسـير، فنحن لا نمتلك سوى بعض النصوص التى لا ترنو عن كونها تأملات حول الحـروف فى الأدب الشـيعى القـديم، وبصفـة عـامة، فإن قضيـة العـلاقـة بين علم الحـروف الإسـلامى والقبّـالة اليـهـودية ليست واضحة بشكل تام ولاسيمـا أنه لا توجد لدينا أية وثيقة تاريخية تسمح بتقـييم أثر كل علم على الآخر، فلقد كان أول نص معروف عن القبّالة هـو (كتاب الخلق)[٦] أو (سفر يتسيرا) الذى عُرف للمرة الأولى عندما نُشر يصاحبه تعليق كُتب باللغة العربية بقلم سعدية هاجون فى القـرن العاشـر على الـرغم من أن تأليفه كـان قبل ذلك

بكثير. ومن المحتمل أن تكون تأملات القبّالة عن علم الحروف قد بدأت فى عصور متأخرة حتى قبل ظهور الإسلام، على الرغم من اختلاف المؤرخين عن التصوف الروحانى اليهودى بين بعضهم البعض حول هذه النقطة، وهناك افتراض آخر، وهو أن يكون بعض اليهود المثقفين الذين دخلوا الإسلام قد أضفوا على التلاوة القرآنية بعض الأنماط أو السلوكيات الفكرية التى كانوا مولعين بها فى الماضى، ويبدو أن هذا المزج أو الاختلاط قد نشأ فى مرحلة متأخرة، لأن سيرة النبى الذاتية قد نوهت إلى وجود ممارسات يهودية شفهية كانت تتم فى المدينة حول أسرار الحروف النورانية التى تبدأ بها بعض سور القرآن، حتى أثناء حياة الرسول(٧). ولن يكون هناك ما يدعو للدهشة إذا وجدنا أنماطًا مماثلة انتقلت من تراث إلى آخر مثل حساب القيمة العددية للحروف والكلمات والمقاربة بين معنى بعض الكلمات ذات القيمة العددية الواحدة وتركيب الحروف الساكنة، كل ذلك كان يتم بواسطة بعض الجداول الحسابية أو الأوفاق السحرية ذات الشكل المربع أو المثلث.

وإذا كان الأمر كذلك، وإذا كان هناك نوع من الاتصال والتبادل بين الممارسات القبالية والروحانيات الإسلامية، فهذا لا يقلل من أصالة التأملات الإسلامية حول النص القرآنى، لأنه على الرغم من قرب الموقع الجغرافى بين اليهود والعرب، فإن اللغة العبرية والعربية مختلفتان اختلافاً جذريًا، فبينما تتكون اللغة العبرية من ٢٢ حرفاً، فإن اللغة العربية بها ٢٨ حرفًا، ويتميز القرآن عن التوراة بوجود خصائص مميزة مهمة مثل الحروف النورانية.

وبصفة عامة، فإن اللغة العربية ترتكز على قاعدة مهمة وهى أن جذر أغلب الكلمات ثلاثى الحروف، وهذه قاعدة ليست موجودة فى أية لغة أخرى، فعلى سبيل المثال، فإن كلمات مثل كتاب ومكاتبة وكاتب وكُتّاب هى مشتقات للجذر (ك ت ب). وهذه الاشتقاقات توجد أيضاً فى سائر اللغات السامية ولكن ليس بشكل نظامى أو منهجى. أما فى اللغة العربية، فهى تساعد على القيام بالكثير من التركيبات وحسابات الحروف بسهولة ووضوح.

وفى الواقع، لا يوجد عدد كبير من الأعمال أو الدراسات المخصصة لغير الناطقين باللغة العربية، قد تناولت موضوع علم الحروف، بيد أنه بين هذه الأعمال القليلة، يعد كتاب دنيس جريل Denis Grill ولاسيما الفصل الخاص بعلم الحروف فى الفتوحات المكية، من الكتب المهمة فى هذا المجال والذى يدين له هذا العمل بالكثير(٨).

وهناك أيضاً مؤلفات Jean Canteins بعنوان «أصوات وأصول» و «أصوات الحروف» و «التراث الخفى فى اليهودية والإسلام»(٩) التى تقدم رؤية ومعطيات ذات فائدة كبيرة فى هذا المجال.

ومن الجدير بالذكر، أن علم الحروف مثله مثل علم القبّالة اليهودية، لا يزال من المجالات الخصبة التى تثير ولع وتأملات كثير من المؤمنين بهذا المجال حتى يومنا هذا، ومما يدل على ذلك، كتاب عبد الباقى مفتاح الجزائرى الأصل، بعنوان «مفاتيح فصوص الحكم لابن عربى»(١٠).

وهناك الكثير من الأعمال التى ترتكز على عملية تجميع تكرارى لبعض الحروف فى القرآن باستخدام الحاسب الآلى، ولكننا لم نلتفت فى هذه الدراسة إلى هذه الأعمال، لأن هدفها هو إعطاء تبريرات تبعد تماماً عن الكيمياء الباطنية للنصوص القديمة التى هى محل اهتمامنا فى المقام الأول.

ويرجع سبب ندرة الأعمال المعروفة المخصصة لهذا العلم أحياناً إلى السمة الباطنية لهذا النوع من الدراسات أو إلى صلتها بعلم الروحانيات، أو علم التوحيد أو حتى بفنون السحر والتنجيم، فنحن هنا بصدد علم يتم تدريسه وتناقله، حتى فى الأوساط الصوفية، بحذر وتحفظ شديد.

وإلى جانب ذلك، فإن قراءة هذه الوثائق يعطى انطباعاً مشوشاً عن هذا العلم ولا يفسح المجال الكافى للفكر و الملاحظة.

إن النصوص المختلفة التى سنتناولها بالتحليل فى هذا العمل، قد تم نشرها بتاريخ سابق لما تم ذكره، وقد قمنا بإجراء بعض التعديلات عليها، فقد تم حذف بعض الأفكار المكررة وإضافة إيضاحات للبعض الآخر وتبسيط الشروح العلمية المعقدة، وفيما يلى أسماء النصوص الأصلية التى قمنا باستعراضها فى مختلف فصول هذا الكتاب:

الفصل الأول: «الملائكة والكلمات فى علم الروحانيات الإسلامية» بحث عن «النقل الثقافى والروحانى» تم إلقاؤه فى

ندوة عُقدت فى السوربون بتاريخ ١٣-١٤ يونيو ١٩٩٢ ونشر فى دورية «جماعة الدراسات الروحانية المقارنة» العدد الأول لعام ١٩٩٣.

الفصل الثانى: بحث عن «علم الحروف فى أرض الإسلام» تم نشره فى دورية جامعة سان جان بالقدس، العدد ١١ بعنوان La Contemplation comme action nécessaire بيرج انترناشونال عام ١٩٨٥. وبحث آخر بعنوان «علم الحروف فى التراث الإسلامى القديم» وهو تقرير عن محاضرات عام ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥ صدر فى المجلة السنوية لقسم العلوم الدينية بكلية الدراسات التطبيقية العليا ـ العدد ١٠٢ .

الفصل الثالث: دراسة بعنوان «من أجل رؤية صوت الله» صدرت فى مجلة آفاق مغربية، العدد ٤١ لعام ١٩٩٩ ودراسة بعنوان «فلسفة اللغة عند إخوان الصفاء» تقرير عن محاضرات عام ١٩٩١ – ٩٢ صدر فى المجلة السنوية لقسم العلوم الدينية بكلية الدراسات التطبيقية العليا ـ العدد ١٠٠ وبحث آخر عن «فلسفة العدد عند إخوان الصفا» تقرير عن محاضرات عام ٩٢ و ٩٣ نشر بنفس المجلة عدد ١٠١.

الفصل الرابع: دراسة بعنوان «ابن سينا والصوفية» عن الرسالة النيروزية ـ صدرت فى مجلة الدراسات الشرقية، العدد ٥٨ لعام ١٩٩٦.

الفصل الخامس: دراسة عن «سحر الحروف فى شمس المعارف للبونى» نشرت فى مجلة الدراسات الشرقية العدد ٣٩ ـ ٤٠ لعام ١٩٨٩.

الفصل السادس: بحث بعنوان «الجسد صار كلمة» صدر فى دورية آفاق مغربية، العدد ٣٠ لعام ١٩٩٦, ودراسة أخرى بعنوان «رمز الحروف واللغة عند ابن عربى» نشرت فى مجلة معرفة الأديان، عدد٦٠ من أكتوبر حتى ديسمبر لعام ١٩٩٩، و دراسة أخيرة بعنوان «من أجل رؤية صوت الله» نشر ملخص لها فى آفاق مغربية، عدد ٤١ لعام ١٩٩٩.

* * *

هوامش وتعليقات

١- أبرا مينورا - بيروت - دار المعارف ١٩٦٣ الطبعة الأولى ص١٦.

٢- فلسفة إخوان الصفاء - الجزائر SNED ١٩٧٥ ص٤٣.

٣- لقد نشأ الجدل حول هذا الموضوع، عندما نشر هنرى كورين فى عام ١٩٥٤ ترجمة وتعليقًا على النصوص الأولية لابن سينا والتى أعيد طباعتها عام ١٩٩٩ بعنوان «ابن سينا وحديث الرؤية» - دار نشر Verdier. والقضية التى مازالت قائمة هى معرفة ما إذا كان ابن سينا قد أضاف إلى هذه النصوص شيئاً جديداً يختلف عما ذكره فى أعماله الفلسفية أم لا.

٤- توجد قائمة بكل المراجع المعروفة عن هذه الأعمال فى كتاب M. Ullman بعنوان

Die Natur _ und Geheimwissenschaften im Islam, Lieden, Brill, 1972

٥- لمزيد من المعلومات عن العلم الكونى لابن عربى مصحوباً بالترجمة راجع كتابى W. Chittick بعنوان:

"The Sufi Path of Knowledge" et "The self-Disclosure of God",Albany, S.U.N.Y Press, resp.1989 et 1998

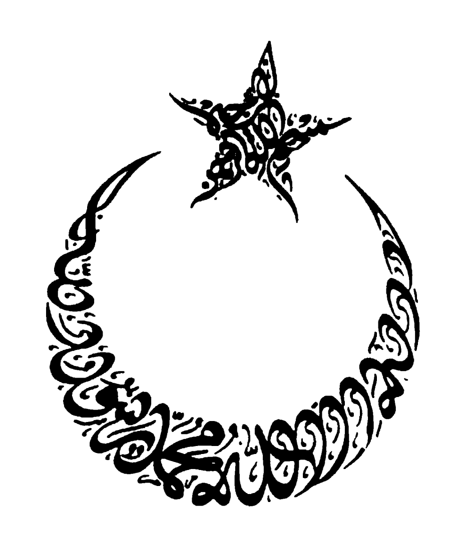
٦- ذكر G. Scholen في كتابه «التيارات الكبرى في الصوفية اليهودية» - دار نشر Payoc عام ١٩٨٢ ص٨٩ ، قائلاً (من المرجح أن يكون تدوين هذا الكتاب ما بين القرن الثالث والسادس).

٧- سيرة ابن إسحاق، طبعة محمد عبد الحميد - بيروت - دار الفكر، الجزء الثاني ص١٧٠-١٧٣، راجع أيضاً الترجمة الفرنسية التي قام بها أحمد بدوي بعنوان «محمد» - دار نشر البراق، بيروت - عام ٢٠٠١ الجزء الأول ص٤٥٠-٤٥١ .

٨- تحت إشراف M. Chodkiewicz دار نشر سندباد - باريس - ١٩٨٨. وهو كتاب ذو قيمة كبيرة بسبب أهميته وكم المعلومات التي يذخر بها.

٩- صدر في باريس عن دار نشر G.P Maisonneuve et Larose عام ١٩٧٢ ودار نشر Albin Michel, Bibliothèque de l'Hermétisme عام ١٩٨١.

١٠- مراكش - دار نشر القبة الزرقاء- عام ١٩٩٧.



شكل زخرفى للبسملة على هيئة نجمة بالخط الديوانى،
شكل زخرفى للشهادتين على هيئة هلال بالخط الديوانى

الفصل الأول

الكلمة الإلهية والعلم الملائكى

الملائكة والكلمات فى علم الروحانيات الإسلامية:-

كان عام ٦١١م تحديداً هو ميلاد تاريخ الدين الإسلامى، والقارئ لنصوص السيرة النبوية يلاحظ أنها تحتوى على روايات مختلفة لقصة بداية نزول الوحى على النبى، ولكن أكثر هذه الروايات شيوعاً وتصديقاً هى تلك التى وردت فى كتاب (السيرة) لابن إسحاق[١]. وطبقاً لهذه الرواية فإن محمد بن عبد الله تاجر القوافل الذى يعيش فى مكة، كان يعتاد التعبد فى غار يقع بجبل قريب من هذه المدينة، وفى إحدى هذه الليالى التى كان يخلو فيها إلى نفسه بالغار، وفيما هو نائم، جاءه كائن ضخم ذكر أنه الملك جبريل فقال: «جاء إلى ممسكاً بصحيفة وقال: اقرأ. فأجاب مأخوذاً: ما أنا بقارئ[٢]، فأحس كان الملك يخنقه ثم يرسله ويقول له: أقرأ. قال محمد: ما أنا بقارئ، فأحس كان الملك يخنقه كرة أخرى، ثم يرسله ويقول: اقرأ. ويقول محمد ـ وقد خاف أن يخنق مرة أخرى ـ ماذا أقرأ؟ قال الملك : ﴿ اقْرأْ باسْمِ ربِّكَ الَّذي خلق (١)

خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (سورة العلق).

فقرأها وانصرف الملك عنه وقد نقشت فى قلبه(٢).

ومن الواضح فى هذه الرواية أن عملية نزول الوحى كانت محصورة بين كل من الإنسان (محمد) والملك (جبريل) وبينهما كلمات يتبادلانها. أما الله الذى، هو فى حقيقة الأمر، الفعل والفاعل فى هذا المشهد، فقد ظل، فى تلك اللحظة محتجباً.

إن وظيفة الملائكة فى الحياة العقائدية الروحانية للدين الإسلامى، قد تبدو خفية وغير واضحة أو قد نقول ثانوية، فهم فى الواقع، مجرد وسطاء بين الله والكون، وقد كلفهم الله بوظائف محددة، يقومون بتنفيذها خاضعين لأوامره.

أليسوا إذًا، فى خدمة الله، طائعين أبداً لأوامره ومؤكدين على الالتزام بعقيدته وربوبيته؟

إن دقة النظام السماوى والفلك الذى يدور فيه الملائكة، لن يدفعنا إلى التساؤل عن مدى الحرية الممنوحة للملائكة؛ فعندما نتوقف لبعض الشيء عند دور الملائكة المحدد والذى ذكر فى النص القرآنى، أو فى العقيدة التوحيدية والصوفية، نكتشف مدى سطحية وخطأ هذا التساؤل.

فمن جهة، لم تؤكد جميع المصادر هذه المثالية المطلقة التى دائماً ما ننعت بها الملائكة، ومن جهة أخرى، فإن هذه المثالية هى نفسها

محل تساؤل، وذلك لأن الطاعة المطلقة والخضوع لإرادة وأوامر الله، هو بالتحديد ما يعد سلوكاً مثالياً فى حياة المسلم. فما إذاً الذى يميز الملائكة عن أى ولىّ من أولياء الله الأحياء على الأرض؟

لقد أكد القرآن فى أكثر من موضع أهمية وجود الملائكة ودورهم كمنقذ للبشر مع التأكيد على أنهم أحد ركائز الإيمان، مثل قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (سورة البقرة آية : ١٧٧). ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا ﴾ (سورة النساء آية : ١٣٦).

لا يستطيع أى مسلم إنكار وجود الملائكة أو إنكار وظيفتهم وإلا كان مذنبًا كافرًا محكومًا عليه بالطرد والنبذ من مجتمع المؤمنين، فالوجود الذى قد يبدو خفياً لهذه الرسل السماوية، يحجب تحديات مهمة سنحاول هنا الكشف عنها.

فانطلاقاً من هذا الميثاق أو الرابطة المعقدة التى تربط الخالق بملائكته والبشر، نجد هذه الصورة النموذجية شديدة الغموض فى

بداية سورة البقرة عندما أعلن الله أمام الملائكة رغبته فى خلق الإنسان ليجعل منه خليفة له على الأرض.

هنا، عبر الملائكة عن خشيتهم وتحفظهم على هذه الرغبة قائلين: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ (سورة البقرة الآيات ٣٠: ٣٤)، فيرد الله حجتهم قائلاً: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾. ثم خلق الله آدم وعلمه الأسماء كلها، فساوى بذلك بينه وبين الملائكة فى المنزلة من حيث الإلمام بهذا العلم، فاعترف الملائكة بجهلهم قائلين: ﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ... ﴾.

وعندما أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم، قاموا بتنفيذ الأمر خاضعين خاشعين إلا إبليس الذى أبى واستكبر فأصبح منذ تلك اللحظة من الملعونين.

إن قصة خلق آدم الذى أوجزها الله فى القرآن فى خمس آيات لا تخلو من الغموض واحتجاب بعض الأمور، غير أن ثراءها الرمزى لم يجف على مر العصور.

وسوف نحاول فى هذه الدراسة المتواضعة، أن نبين كيف أن الأسرار فى عالم الإنسان والملائكة يكمل بعضها البعض فى علم الروحانيات الإسلامى، سوف نوضح فى المقام الأول من هم الملائكة وما وظيفتهم فى العقيدة التوحيدية الإسلامية، ثم سنتناول الأبعاد التأويلية لعلم المخلوقات السماوية أو الملائكة فى علم الكونيات وأيضاً فى الأبحاث الصوفية الفردية.

الملائكة خدمة الكلمة الإلهية:-

لقد أكدنا كثيرًا على دور الكلمة الإلهية فى رؤية الإسلام للعالم والحياة الدينية. فلقد خلق الله العالم بالكلمة، وهناك كثير من الآيات القرآنية تذكر أن الله عندما يريد شيئاً يقول له كن فيكون.

كما أن الكلمة كانت دائماً هى الصلة الروحانية التى تربط المخلوقات بالخالق، هذه الكلمة نقلها الأنبياء إلى البشر على مر التاريخ البشرى، بدءًا من الأسماء التى علمها الله لآدم ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة البقرة آية ٣٧) إلى القرآن نفسه ككتاب مقدس. وبدورهم تسبح جميع المخلوقات فى الكون حتى النبات والجبال والجماد بحمد الله، وهذا ما توضحه الآيات التالية ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (سورة الإسراء آية ٤٤) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (سورة النور آية ٤١) ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (سورة الحشر آية ٢٤) ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (سورة المنافقون آية ١) ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة التغابن آية ١)

ومن هنا ندرك، أن الكلمة، التى هى موضوع دراستنا، ليست الكلمة بمدلولها اللغوى، لكنها الكلمة الإلهية التى تتعلق بالمخلوقات العاقلة الناطقة وهى ثلاث فئات: الملائكة والبشر والجن.

أولاً: الملائكة

لقد خلق الله الملائكة، كما هو مذكور فى القرآن، قبل خلق الإنسان، الذى خلق من طين، أما طبيعة الملائكة فهى ذات طبيعة نورانية كما ورد بالحديث النبوى، ولقد ورد ذكر الملائكة فى القرآن دائماً بشىء من التحفظ، ففى الآيات التى ذكرهم الله فيها، كانت وظيفتهم هى الحفاظ على نظام الخلق وتدوين كلمات الله ونقلها إلى بعض البشر، كما حدث مع كثير من الأنبياء مثل إبراهيم وزكريا ومريم وبالطبع محمد، وهم أيضاً مكلفون بمراقبة سلوك البشر وتدوين أعمالهم الحسنة أو السيئة فى كتب سماوية سيتم إعادة قراءتها يوم الحساب، فضلاً على قيامهم بدور فعّال فى بعض الأحداث التى وقعت على الأرض؛ فقد ذكر الله دعمهم الحاسم للمسلمين إبان غزوة بدر، حيث استطاع المسلمون هزيمة الكفار الوثنيين على الرغم من تفوقهم العددى. ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ (سورة آل عمران آية ١٢٤) ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (سورة الأنفال آية ٩)[٤] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ

تروها وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾ (سورة الأحزاب آية ٩). وقد ذكر الله أيضاً أن الملائكة، فى يوم الحساب، سيكونون أعوان الله تجاه البشر، فيدخلون المؤمنين الجنة ويقودون الكفار إلى النار. أى أنهم سيكونون موكلين، باعتبارهم خدمة الله، بتعذيب هؤلاء الكفار. أما دور الشياطين، فهو فى الإسلام دور هامشى، ينحصر فى غواية البشر من أجل اختبار قوة إيمانهم.

ومما لا شك فيه، انه فى جميع هذه الوظائف التى كلف الله بها الملائكة، ينحصر سلوكهم، كما هو واضح بصفة عامة، فى إظهار الطاعة والخضوع للخالق، باعتبارهم خدمته، دون التعبير عن أى إرادة ذاتية.

بيد أن بعض الآيات فى القرآن، تلقى ببعض الظلال من الشك تجاه هذا الموضوع. فقد رأينا سابقاً، أن الملائكة أظهروا، فى قصة خلق آدم، بعض التحفظ وخاصة فيما يتعلق بنزول الإنسان على الأرض. بل إن هناك آية أخرى قد وضعت المفسرين فى حيرة شديدة و هى: ﴿ واتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ علىٰ مُلْك سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وما أُنزل على الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة

البقرة آية ١٠٢). و أمام غموض هذه الآية لم يجد المفسرون أمامهم سوى أن يقدموا تفسيراً افتراضيًا يتلاءم مع حرفية النص القرآنى والعقيدة الإسلامية. فقد افترض بعضهم أن هاروت وماروت ركانا ملكين ملعونين، علما الناس والشياطين فنون السحر وهما ليسا أهلاً لذلك. وقد قاما بذلك إما بسبب جهلهما أو بسبب عصيانهم لأوامر الله. وطبقاً لهذا التفسير، فإن الملائكة ليسوا، فى حقيقة الأمر، معصومين من الخطأ.

والبعض الأخر فسَّر هذه الآية على أن الله قد عمد على كشف أسرار علم السحر إلى البشر على الأرض ولكن نهاهم عن استخدامه فى إيذاء الناس؛ فمنهم منْ استخدمه فى الأعمال المشروعة، مثل سليمان بن داوود، والبعض الآخر وقع " بسبب استخدامه فى الشر، فى الكفر والمعصية كما فعل الشياطين والسحرة.

وهناك مشكلة أخرى أثارتها بعض الأيات فى القرآن والتى تتحدث عن تمرد إبليس الذى أبى فى زهو وغرور، السجود مع الملائكة لآدم عندما أمرهم الله بذلك، فلعنه الله وأخرجه من الجنة مع السماح له بإغواء البشر حتى نهاية الزمان.

وهنا أيضاً، يجد المفسرون أنفسهم فى حيره شديدة. لأن إبليس قد عصى بالفعل ربه، وهنا يتحقق الفرض بأن الملائكة ليسوا جميعاً بطبيعتهم معصومين من الخطأ. وهناك تأويل آخر، وهو أن

إبليس لم يكـن من الملائكة ولـكن من الجـن كمـا تؤكده هـذه الآيـة ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ (سورة الكهف آية ٥٠). وهنا يطرح تساؤل عن سبب وجوده أبليس فى مـجلس الملائكة، باعـتبـار أن الجن مـخلوقـات أرضـيـة سـفليـة أقل منـزلة من الملائكة وليس مـسـمـوح لهم الصـعـود إلى السماء والتواجد بين الملائكة.

وفى هذا الأمر، سنترك للمفسرين المسلمين مسئولية تأويل هذه المسألة.

وفى كل الأحوال، فـإنه إذا كان الهدف من نزول القـرآن هو نقل رسالة واحدة مترابطة متجانسة، فلا يجب البحث عن هذه الرسـالة فى المعنى الحـرفى للآيات السـابق ذكرها، إلا إذا اسـتطاع التـأويل، الدخـول فى أعـمـاق تلك الآيات لكشـف عـمـا بهـا من رمـوز. ولقـد استطاع القـيـام بذلك كـثـيـر من العلمـاء الروحـانيـين والفـلاسـفـة المسلمين كما سنبين فيما بعد.

ثانياً: البشر:-

وهم الفـئة الثـانيـة من المخلوقـات العاقلة، ويخـتلف البشـر عن الملائكة فى عدة خصائص، ففضلاً عن اختلاف طبيعتهم التكوينية من حـيث الخلق، فـقـد خُلق آدم من طين ثم نفخ فـيـه من الروح

الإلهى، فإن الإنسان منذ بداية الخلق، كلفه الله بمهمة فريدة وهى أن يكون خليفته على الأرض، ولهذا استحق سجود الملائكة له، كما أنه كُلف بحمل الأمانة والتى لم يتم تحديد ماهيتها فى القرآن. ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ (سورة الأحزاب آية ٧٢). ففى هذه الآية تظهر الطبيعة البشرية التى تتسم بالضعف والميل إلى الخطيئة التى تميز البشر عن الملائكة، تظهر كنوع من الارتباط المتبادل أو مقابل لتنفيذ الإنسان لكثير من أهداف الخالق.

ثالثاً: الجن:-

ذُكر الجن فى أكثر من موضع فى القرآن، فقد خلقهم الله ككائنات ذات جسد قابل للتشكيل ولكن طبيعتهم تختلف عن طبيعة الملائكة. فقد خلق الله الجن من مارج من نار وليس من نور، كما أنهم يسكنون الأرض وليس السماء.

إن الجن، فى الحقيقة، يشبهون البشر فى كثير من الأمور، فهم يتناكحون ويتوالدون ويموتون مثلهم، وهم أيضاً، مكلفون بإذعان الطاعة لله وليسوا معصومين من الخطأ تماماً مثل البشر، أى أن منهم المؤمن ومنهم العاصى الكافر.

وبالتالى، فمنهم من سيدخل الجنة ومنهم من سيدخل النار، كما فى قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ

لأ يفقهون بها ولهم أعين لأ يبصرون بها ولهم آذان لأ يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ (سورة الأعراف آية ١٧٩).

أما عن وظيفة الجن فى إبعاد البشر عن طاعة الله وعفوه، فهو دور هامشى. فالذين تمردوا من الجن، وشُبهوا أحياناً بالشياطين، قد قاموا بإغواء بعض من الناس وخاصة السحرة والمنجمين وذلك بأن قدموا لهم بعض الخدمات(٥).

والجن لا يستطيعون مطلقاً مساعدة البشر، حتى المؤمن منهم أو الصالح، مثل الجن الذين ذُكروا فى القرآن أنهم استمعوا إلى آيات القرآن فآمنوا به ﴿ قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا (١) يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴾ (سورة الجن آية ١:٢). بل العكس هو الصحيح، باعتبار أن الجن مكلفون أيضاً باتباع الرسالة الإلهية التى يدعو لها الأنبياء الموحدون بالله.

فإذا رجعنا إلى وظيفة الملائكة، سوف نلاحظ مدى اتصال هذه الوظيفة بالكلمة الإلهية. فهم، عن حق، يعملون فى خدمة هذه الكلمة الإلهية التى يقومون بتسجيلها فى الكتب السماوية، ثم ينشرونها فى كل عناصر الطبيعة الكونية والتى تتلقى كل منها الأمر الإلهى المكلفة به. كما أنهم ينقلون إلى الأنبياء الرسائل التى كلفهم الله بنشرها إلى البشر. وفيما يتعلق (بمحمد) فإن هذا الوحى الإلهى قد نقل إليه بعدة صور محددة. فقد كان الملك جبريل يظهر أحياناً لمحمد على هيئة بشرية حتى يستطيع رؤيته والحديث إليه. ولكن فى أغلب الأحيان، كان محمد، عند تلقيه الوحى، يدخل فى

حالة من اللاوعى فلا يسمع سوى صوت يملى عليه الآيات القرآنية الجديدة.

لقد كلف الله أيضاً الملائكة بحراسة البشر وكتابة أعمالهم، كل على حدة، فى كتاب كما ورد فى القرآن ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) ﴾ (سورة الانفطار آية ١٠:١٢).

والملائكة يمتلكون القدرة على الكلام بمعنى أنهم يمجدون الله ليل نهار ودون توقف. وكثير من النصوص الفلسفية والصوفية تشير إلى أن هذه اللغة السماوية الملائكية التى يتحدث بها الملائكة فيما بينهم هى اللغة السريانية التى تعتبر أم اللغات جميعاً ولذلك فهى ذات منزلة أعلى من جميع اللغات الأخرى. وقد وُهب بعض الصوفيين "القدرة" على سماع هذه الأصوات السماوية وفهمها(٦).

غير أن هناك بعض المفكرين فسروا هذه اللغة بأنها التناغم الذى يوجد بين عناصر الكون، وكان أول من استطاع فهم هذا التناغم هو فيثاغورث.

إن كل ما يعنينا فى هذا المقام، هو توضيح أن لغة الملائكة، أيًا كان شكلها، ترتبط دائماً بالفعل حتى وإن كان هذا الفعل هو التسبيح لله وحمده.

فهذه اللغة الملائكية هى التى تجعل السماوات تدور (بأمر الله) فى فلكها، وهى أيضاً التى تسيّر عناصر الكون فى تناغم وتناسق دقيق، وهذا الموضوع جدير بأن نتوقف عنده قليلاً.

الدور الكونى للملائكة

أدركت التيارات الروحانية الإسلامية المختلفة هذا الرباط الكونى العميق الذى يربط الكلمة الملائكية بالفعل، وعبرت عنه بأشكال مختلفة، ولقد قام أقطاب الفلسفة الإسلامية، الذين استوحوا فكرهم من الفلسفة اليونانية وبوجه خاص من الفلسفة الأفلاطونية المحدثة، بربط العلم الملائكى بهذا الفيض المشترك للقوة الخلاقة المؤسسة للعوالم وللنظام الرئيسى لتكوينها التدريجى، وقد كان «الفارابى»، فيما يبدو، أول من أدرك هذا التطابق بين انبعاث النفحات الروحانية الإلهية للواحد الأحد ومجموع الكائنات الملائكية. بيد أنه فى فلسفة ابن سينا، اتخذت فكرة الالتحام بين هذا الانبثاق الكونى والنظام الذى يسيّر العالم الملائكى بعداً عميقاً حتى أنه أصبح حقلاً خصباً استقى منه كثير من الكُتّاب ذوى الاتجاهات الصوفية(٧) فكرهم فيما بعد.

ثم ظهر بعد ذلك فى العصر نفسه(٨)، فكر فلسفى مشابه ولكنه اتخذ صبغة غنوصية باطنية، قام بنشره فلاسفة المذهب الإسماعيلى، وفى هذا المقام لا نستطيع أن ننكر دور الفيلسوف الشيخ شهاب الدين عمر بن محمد سهروردى ومؤلفاته الضخمة وفلسفته الباطنية التى يشكل جوهرها فكرة انبثاق طبقات الملائكة فى مراتب الكون(٩).

أما الصوفية، فقد تعمقوا فى مسألة دور الملائكة الكونى، إلا أن مؤلفات ابن عربى تقدم، فيما يتعلق بهذا المجال كما سبق أن قدمت

فى جميع المجالات الأخرى، خلاصة تامة ووافية لإحدى العقائد الصوفية المتعلقة بالدور الروحانى للملائكة تجاه البشر(١٠).

وبالطبع، فإنه ليس من صميم اختصاصنا فى هذا العمل تقديم وصف حتى وإن كان موجزًا، لعناصر كل عقيدة من هذه العقائد. لأن «تعدد أنماط الفكر والتجارب تحرِّم» من منظور الدين الإسلامى، الحديث عن علم الملائكة. على أنه مجرد تصور مترابط ومتجانس للكون، وهذا ما عبر عنه، بشكل أو بآخر، جميع الكُتَّاب. ولكننا سنتوقف فقط عند اثنين من العلوم استطاعا، بوجه خاص، توضيح دور الملائكة فى علم الروحانيات الإسلامية:-

أولاً: علم الفلك:-

وهو أول تلاقى بين علم الكونيات وعالم الملائكة. فرغم التدهور الذى شهده هذا العلم فى العصر الحديث، إلا أننا لا يجب أن ننسى أن غالبية فقهاء الدين الاسلامى القدماء، يعتقدون اعتقادًا راسخاً بأن الأفلاك السماوية تسكنها طبقات مختلفة من الملائكة. وإذا كان موقع النجوم يمكنه الكشف عن بعض الأحداث فى العالم الأرضى، فإن ذلك نتيجة للنفحات التى تبثها كل طبقة من طبقات الملائكة على الطبقة السفلى. ومما لا شك فيه، أن وظيفة الملائكة تتصل اتصالاً وثيقاً بالأمر الإلهى، وانطلاقاً من هذا المفهوم يصبح علم الفلك متوافقاً مع العقيدة الإسلامية.

وأخيراً فإن تطبيق علم الفلك يعد، فى حقيقة الأمر، نوعًا من الاتصال بالملائكة أو ترجمة عناصر لغتهم وأفعالهم إلى البشر. ويطبق هذا العلم، بالفعل، على جميع مجالات الحياة، بدءًا بالسياسة والحروب حتى أكثر الأمور الدنيوية تواضعاً، مثل البحث عن الثراء والحب والصحة، ويتعلق هذا العلم أيضاً بالطموحات السامية لأولياء الله، نظراً لتأثر مفهوم الخلوة الدينية والأحلام أو الرؤى لدى كثير من علماء الصوفية بهذا العلم.

ثانياً: علم الحروف:-

يشبه علم الحروف، وهو الموضوع الرئيسى لهذا الكتاب، إلى حد كبير القبّالة أو التصوف اليهودى، كما أنه يعتبر العلم الثانى الذى يتضح فيه بجلاء أثر القوة الملائكية فى العوالم السفلية الأرضية. ويرى المحققون فى هذا العلم، أن العالم قد خُلق من ثمانية وعشرين حرفاً وهى حروف الأبجدية العربية، تم تركيبها بطريقة معقدة، فكلما ازدادت كثافة العلاقة بين الحروف والعناصر كلما نتج عن ذلك، فى كل مستوى من المستويات، عالم كثيف يتدرج حتى الوصول إلى أقصى مستوى من الكثافة عند مستوى العالم المادى الأرضى.

ويعد الملائكة الشكل الأول لهذا المزج بين الحروف والعناصر، كما أن هذه الحروف الأولية هى نفسها ملائكة، وهذا ما نستطيع أن نفهمه من إحدى الفقرات الغامضة فى كتاب «الفتوحات المكية»

لابن عربى والتى يصف فيها حروف الهجاء باعتبارها مجموعة من الحروف تحكمها قواعد وتصنيف خاص(١١).

ونتائج تطبيق هذا العلم الملائكى هائلة من منظور عدد كبير من علماء الصوفية، فقد تخطت مجال علم الحروف لتغزو مجالات أخرى متعددة مثل علوم السحر والتنجيم التى تختص باستحضار الطاقات الملائكية، فإذا كان الملائكة هم أنفسهم كلمة، فإن معرفة باطنية وأسرار لغتهم ستتيح معرفة حقيقة وجوهر كينونتهم، على أمل استخدام قوتهم بطريقة أو بأخرى.

فعلى سبيل المثال، يرى «البونى» أن كل آية من آيات القرآن ملك فى حد ذاتها فالآيات التى تصف الجنة هى ملائكة تتصف بالعطف والتسامح، أما الآيات التى تصف النار، فهى ملائكة يتصفون بالقسوة والشدة، كما أن كل كلمة تدل على ملك من الملائكة يشكل معناها الباطنى(١٢).

ويعد المستوى الأنطولوجى الباطنى الأعلى لكل كلمة ملائكية، هو فى حد ذاته ملك هذه الكلمة. أما الحروف (المقطعة) فتشكل قمة هذا التصنيف، ويعتبر حرف (الألف) هو كبير ملائكة هذه الحروف.

إن كل ما يعنينا توضيحه الآن، أنه إذا كان كل ما يحدث فى عالمنا، تنظمه هذه الكلمات المنبثقة من السماوات، فإن ذلك

يستوجب بالضرورة أن يكون كل كائن بشرى ظاهرة نهائية لحياة ملائكية سبقت وجوده فى الكون.

* * *

الملائكة والقدر الإنسانى

تعتقد كثير من التيارات الفكرية الصوفية القديمة، فى وجود تكامل عميق بين طبيعة الملائكة والطبيعة البشرية، بيد أن لفظ "طبيعة" الذى يرجع إلى اللغة اليونانية، لا يعتبر اللفظ الدقيق الذى يتلاءم مع هذا الجانب من الحياة الدينية الإسلامية. والأفضل هو استبداله بكلمة «نظام». فالذى يجعل الإنسان إنساناً، ليس تكوينه الطبيعى الثابت تحت جميع الظروف، ولكنه نظام دقيق ومحدد صنعته الإرادة الإلهية فيه لمدة محدودة من الزمن.

فإذا تغيرت الإرادة الإلهية، يتغير على الفور نظام الخلق كما حدث للكفار المتمردين الذين سخطهم الله قردة وحيوانات ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (سورة المائدة آية ٦٠). ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ (سورة البقرة آية ٦٥). ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ (سورة الأعراف آية ١٦٦).

إن هذه التغيرات فى نظام خلق الكائنات توضح مدى الشفافية النسبية بين المستويات السماوية والأرضية؛ فالملائكة يمكنهم التحول إلى بشر، كما ورد فى قصة هاروت وماروت التى سبق وتحدثنا عنها، كما يمكنهم أيضاً التحول إلى شياطين كما تصور قصة إبليس.

وفى الاتجاه نفسه، فإن هناك بشرًا قد سخطوا حيوانات أو شياطين، كما أن هناك من تمكن من الصعود إلى منازل سماوية عليا مثل المسيح ابن مريم، الذى وهبه الله سمات ملائكية منذ مولده؛ فقد كانت أمه عذراء طاهرة لم يمسسها بشر، ثم رفعه الله إلى السماء حياً دون أن يتوفاه[١٣].

وهناك أيضاً أنبياء، تعرضوا لتطورات مشابهة عندما صعدوا إلى السماء مثل النبى إدريس وإلياس والخضر الذين لم يتحدث القرآن عنهم كثيراً، ولكن طبقاً لروايات التراث، لم يعرفوا الموت.

ويتمتع الأنبياء، بصفة عامة، بمكانة وتكوين وثيق الارتباط بالعوالم السماوية؛ ففى قصة الإسراء والمعراج، عندما عرج الرسول من سماء إلى أخرى حتى وصل إلى العرش، قابل فى كل سماء من السماوات أحد كبار الأنبياء كل فى مكانه المحدد طبقاً لمنزلته السماوية.

فالعلاقة بين الأنبياء والملائكة ليست إذاً محدودة فى تلقى الرسالة الإلهية، ولكنها علاقة عميقة متناغمة ومتقاربة، وهذه

العلاقة ليست مقصورة على الأنبياء وحدهم دون غيرهم، فكل إنسان مطالب باكتشاف هذه العلاقة فى باطنية ذاته.

لقد أطلق «هنرى كوربن» على هذه التجربة اسم «التحول الملائكى» وهى عملية ظهرت فى عهد قديم من التاريخ الإسلامى ولاسيما فى الأوساط الشيعية المتطرفة الذين يطلق عليهم اسم «الغلاة».

يعتقد أصحاب هذا المذهب أن مصير البشر هو طريق يشبه الطريق الذى تسلكه الروح من خلال عدد معين من القوالب قد تكون أجسادا لكائنات حيوانية أو بشرية.

فإذا تطورت الروح بالقدر الذى يمكنها من الولوج إلى المسلك الروحانى الشيعى، متبعة فى ذلك تعاليم إمام زمانها، فستتمكن من الوصول إلى الهدف الأسمى للحياة وذلك بالتحول إلى ملك.

وأقطاب الطريقة، العارفون بالسر للدرجات العلا، كانوا يعتبرون ملائكة على الأرض. أما أعداء الشيعة، فكان ينظر إليهم على أنهم حيوانات أو شياطين على الرغم من مظهرهم البشرى(١٤).

لقد انتشرت هذه المفاهيم ولكنها اتخذت اتجاهاً فلسفياً أكثر منه صوفياً، فى عقيدة «الطائفة الإسماعيلية» و «إخوان الصفاء»، إلا أننا نجد لها أصداء فى بعض الممارسات الصوفية، بيد أن الكُتَّاب الصوفيين، قد اتجهوا إلى وضع مرحلة التناسخ أو الاتحاد

النهائى بين الولى وملكه أو قرينه الملائكى فى مراحل متقدمة من التطور البشرى، أى بعد الموت الجسدى الحقيقى للإنسان.

كيف يمكننا فهم هذا الانتقال التدريجى من الحالة البشرية إلى الحالة الملائكية؟

فيما يتعلق بهذه النقطة، يتيح علم الحروف تفسير المنظور الذى وضعه «ابن عربى» لهذا التحول.

يرى ابن عربى أن كل كائن بشرى هو مظهر أرضى «لاسم ما»، أى تركيبة معقدة من الحروف والأسماء، ويعتبر هذا (الاسم) جوهر هذا الكائن البشرى ويتكيف مع حالته الحاضرة، ووضعه المحدد فى تلك الشبكة الهائلة من العلاقات التى تربط الكائنات السماوية بالكائنات الأرضية وتربط هذه الكائنات الأرضية بعضها بالبعض الآخر.

وليست هذه الشبكة قالبًا جامدًا لا يتغير، ولكنها المكان الذى يتم فيه عدد هائل من التركيبات والاستبدالات الحرفية الخاصة بالتكوين والبنية اللغوية الهائلة التى تحكم الكون، وكل كائن بشرى مطالب، بعيداً عما يحدث من تغيرات فى العوالم السفلية، بالكشف عن هذا الاسم الأعظم الباطنى، الذى هو فى حقيقة الأمر، أصل آنيته والتعبير عن تمام وجوده، إن هذا المَلَكْ، هذا المثيل الأصلى السماوى، الذى يبحث بواسطة شكله الظاهرى فى العالم الأرضى، عن التعبير بالفعل عما هو مستتر بباطنه من طاقة وقوة، هو ذاته

هذا الاسم الباطنى والرحم الذى يحمل حقيقة الإنسان، إن طبيعة هذا المَلَكْ لا يمكن تحديدها، فهو ليس كائنًا موجودًا فى حد ذاته ولكنها طاقة، نبتة سماوية متمددة تهدف لتحقيق الرسالة التى كلفتها بها الحكمة الإلهية ووضعها الله بداخلها.

وندرك، بعد هذه التأملات القصيرة، أن هذا المَلَكْ ليس هو ولى الله الخاضع لأمره إلى درجة التلاشى التام من عملية البحث البشرى عن السعادة الأبدية، ولكنه، مثل اى اسم، ومثل اى رقم، عبارة عن شبكة معقدة من العلاقات وليس فقط جوهرًا بسيطًا لا متميزًا(١٥).

إن هذه المفاهيم تثير بعض الملاحظات:-

- كل ملَكْ يتكون من تعددات أحادية التكوين، فهو لا يمتلك شخصية ذاتية مغلقة ولكن مجموعة العلاقات الوثيقة التى تربطه بباقى الكيانات وشفافية مدركاته وقوة طاقته التى وهبها الله له، كل ذلك يقوده إلى الوجود فقط بداخل مجموعة الكائنات الأصلية حيث يتم تحديد فرديته ليتحد مع هذا الفيض للمدركات والعطاء الكلى، ويمكن ملاحظة مجموع هذه الكيانات التى تستطيع أن تعمل كمَلَكْ واحد يرتبط أيضاً بمجموعة أخرى أكثر اتساعًا من الكائنات الكونية الأصلية، وشيئاً فشيئاً، تتغلغل المجموعات الملائكية فى جميع المستويات السماوية بل أيضاً الأرضية، وهذا هو فى حقيقة الأمر، ما عبرت عنه بشكل مرئى بعض اللوحات الفارسية المصغرة،

حيث نرى فى خلفية اللوحة مشهدًا دينيًا يغطيه عدد كبير من الوجوه المشرقة التى تقترب من بعضها البعض لتملأ كل المساحة السماوية.

- ومما تقدم لا ينبغى أن نفهم أن وجه المَلَكْ يفرق فى هذا العدد من الوجوه السماوية بحيث تتلاشى هويته وتكوينه: فهذا المَلَكْ يكتسب شخصيته وفرديته من امتداده لتحقيق مصيره الأرضى وأيضاً من كونه ملكًا لإنسان محدد. إن هذا الامتداد نحو الإنسان على الأرض هو، بشكل ما، حيوى بالنسبة لهذا المَلَكْ، لأن هذا الإنسان ليس سوى مثيله أو قرينه الأرضى، فحاجة الواحد للآخر تعد حاجة متبادلة، والاثنان معاً، يشكلان الشخصية الكاملة؛ فالإنسان الأرضى، مثله مثل المَلَكْ، يوجد داخل مركز شبكة من العلاقات تشكل فرديته مثل علاقاته بأسرته وبيئته وبالطبع علاقاته بمعلمه الروحانى وعلاقاته بالعوالم السماوية، فإذا لم يتناغم مع صيرورته الأرضية بالخضوع للقانون الإلهى الأعلى أو لأبعاده السماوية وذلك بالتعايش مع ملكه، فلن يستطيع الوصول إلى مرتبة الإنسان الكامل، أما إذا وصل إلى هذه المرحلة من الكمال الإنسانى، فذلك يعنى أنه ارتضى واعيًا الاندماج فعليًا مع مجموعة الكائنات الملائكية التى تغمر بالرحمة العوالم من أعلى إلى أسفل، كما ارتضى الاتحاد ليس فقط مع الله، كما تسميه التجربة الصوفية، ولكن أيضاً مع باقى الكائنات الحية، تلك هى الصورة التى عبر عنها الحديث الشريف قائلاً:-

«إن قلوب بنى آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كالقلب الواحد يصرفه حيث يشاء ».

إن هذا التحول الذى يحدث بداخل قلب الإنسان الصوفى، والذى يعتبر تحولاً لقلب كل العنصر البشرى، هو دون شك السر الأول والآخر لهذا العمل الذى يقوم به المَلَكْ.

هوامش وتعليقات

١- لقد وردت قصة بداية نزول الوحى على محمد بطرق مختلفة فى كل من كتاب (السيرة) لابن إسحاق وصحيح البخارى ورواها أيضاً أوائل المؤرخين من أمثال ابن سعد والطبرى. وعلى الرغم من أن الرواية التى ذُكرت فى كتاب ابن إسحاق والتى استعنا بها فى هذه الدراسة، هى الثابتة فى العقيدة الإسلامية، إلا أن المقارنة بين الروايات المختلفة لهذه القصة قد تفتح آفاقًا جديدة. راجع كتاب (محمد فى مكة) لـ W.M.Watt ص ٦٥-٧٩ Payot , 1958

٢- يقصد هنا بالفعل (اقرأ) القراءة الجهرية أو التلاوة وتعد كلمة القرآن اشتقاقًا لجذر الفعل نفسه وهو (ق ر أ) .

٣- انظر كتاب السيرة لابن إسحاق الجزء الأول ص ٢٥٤ _ ٢٥٥ وفيه نجد أن أقوال المَلَكْ فى هذه الرواية تتفق مع آيات سورة اقرأ .

٤- لم يكن هذا الدور العسكرى الذى قام به الملائكة فى غزوة بدر، مقصورًا، فى المفهوم الشعبى، على عصر بدايات الإسلام. فقد أكد الجنود، فى معركة ١٩٧٣، عندما كانوا يعبرون قناة السويس، رؤيتهم لكتائب من

الفرسـان يرتدون زياً أبيض اللون، قـد جـاءوا لمسـاندتهم. وهناك أيضـاً روايات مماثلة عن مـعـارك أفـغـانسـتـان ضـد الجـيش السـوفـيـتى وحـرب الشيشان.

٥- هناك بعض الآيات القـرآنيـة تبـين أنه قـبل ظهـور الإسـلام، كـان الجن يستطيعون الوصول إلى السماء الأولى من أجل التصت على حديث الله إلى الملائكة ثم يذهبـون إلى المنجـمـين ويكشـفـون لهم أحداث المسـتـقـبل. ولكن، منذ ظهـور الإسـلام، حُـرِّم عليـهم الصـعـود والتنصت إلى أصـوات السمـاء، فقد طردهم الله بأن وجه إليهم شهب تترصدهم (سورة الجن آية ٧-١٠)

٦- لقد قدم العالم الصوفى المغربى عبد العـزيز الدبَّاغ فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر، نموذجاً فريداً فى هذه القدرة.

راجع «كتاب الإبريز من كلام عبد العزيز» عن دار نشـر الشـماع ـ دمشق ـ عام ١٩٨٢، الجزء الأول ص ٣٢٥ .

راجع أيضاً الترجمة الفرنسية لكتاب "أقوال من ذهب" والتى قام بترجمته Z.Zouanat دار نشر Relíe عام ٢٠٠١ .

٧- انظر كـتـاب «ابن سـينا وحـديث الرؤية» Avicenne et le récit visionnaire لهنرى كورين، Berg International 1979 .

٨- انظر كتاب «تاريخ الفلسفة الإسلامية» Histoire de la philosophie is la mique لهنرى كورين "Folio-Essais Gallimard" «الفصل الثانى ١٩٨٥ .

٩- انظر كتاب «فى الإسـلام الإيرانى» En Islam Iranien لهنرى كـوربن الجـزء Bibliothè que des Idées. Gallimard, 1972-1971 .

١٠- انظر كتاب هنرى كورين بعنوان «الخيال الإبداعى فى صوفية لابن عربى»

L'Imagination créatrice dans le soufisme d'"Ibn Arabî", Flammarion, 1977

١١- انظر كتاب «الفتوحات المكية»، ص ٤٥٤-٤٥٦، ١٩٨٨.

١٢- انظر كتاب «شمس المعارف ولطائف العوارف» ص ١٤.

١٣- لمزيد من المعلومات عن الآيات القرآنية التى تتحدث عن حياة المسيح، انظر كتاب Roger Analdez بعنوان «المسيح ابن مريم، نبى الإسلام».

Jésus fils de Marie, prophète de L'Islam, Derclée, 1980

١٤- انظر كتاب V.Heinz Halm بعنوان :

"Die islamish Gnosis, Zurich-Munich, Artemis Verlag, 1982,

١٥- الفتوحات المكية، ص ٧٤٦ .



لا إله إلا الله بخط الثلث

الفصل الثانى

علم الحروف فى أرض الإسلام

إن العلم الباطنى لحروف الهجاء فى اللغة العربية، والذى سنحاول فى هذه الدراسة توضيح عناصر قوته، يعد أحد الركائز الأساسية لعلم الروحانيات الإسلامية.

ويعرف هذا العلم بعلم «السيمياء» أى «علم تصريف الحروف» وهى كلمة مشتقة من اللغة اليونانية "Sêmcion"وتعنى الرمز(١). وقد كان هذا العلم، قبل الهجرة، يعد من أشرف العلوم وأعظمها. ولكنه اتخذ، فى العصر الحديث، أشكالاً أخرى متعددة بظهور علم الدلالة وعلم الرموز التى تختلف اتجاهاتها وأهدافها عن هدفنا فى هذه الدراسة، وهو البحث عن الدلالة الحرفية من أجل كشف المعنى الباطنى المتسامى.

ومن الملاحظ أن وزن كلمة سيمياء هو نفسه وزن كلمة كيمياء، وهذا التقارب فى الوزن، على الرغم من ندرته فى اللغة، إلا أنه لم يأت بمحض الصدفة؛ وذلك لأن كلمة «سيمياء» عرفت منذ البداية على أنها علم تحولات الكلمة، تماماً مثل علم الكيمياء الذى هو علم

تحولات المادة، وحتى يومنا هذا، لم يحظ علم السيمياء بالاهتمام الذى حظى به علم الكيمياء من قبل العلماء المسلمين أو المستشرقين.

ويرجع السبب فى ذلك، إلى صلته الوثيقة بممارسات السحر والشعوذة، رغم كونه شديد القرب من التيارات الصوفية فى المجتمعات الإسلامية سواء كانت مجتمعات عربية أو تركية أو فارسية.

إن الدين الإسلامى، مثله مثل الدين المسيحى واليهودى، هو «دين كتاب». فالحدث الأساسى الذى يعد جوهر هذه الديانات الثلاث هو توجه الروح الإلهية إلى العقل البشرى بواسطة الكلام الذى أظهر هذه الكلمة الإلهية فى اللغة البشرية. أما بالنسبة للمسلمين، فقد كان القرآن دون شك هو المظهر الأسمى للتجلى الإلهى، وهذا ما يكسب القرآن أهمية تتعدى أهمية الإنجيل عند اليهود أو المسيحيين.

لقد سبق أن أشرنا، أنه إذا كان الله قد «صار جسدًا» فى الديانة المسيحية، فإنه فى الإسلام قد «صار كتابًا». فالقرآن هو وجود الله بين البشر وهذا ما يوضح سبب ظهور علم الحروف العربية.

بيد أن العلماء الروحانيين وأهل للباطن من المسلمين، لم يكتفوا بهذه المكانة العقائدية لعلم الحروف، فقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك بالقول بأن الكون كله «دلالة» وأن الكون «كله كتاب».

وإذا كان القرآن، وهو كلمة الله، قد نزل إلى البشر وحياً، فلأنه يحمل رسالة يقدر العقل الإنسانى على فهمها واستيعابها، فوظيفة القرآن إذًا ليست محدودة فى قراءة آياته البالغ عددها ٦٢٣٦ آية، ولكنه المفتاح لكشف أسرار المعرفة الإلهية، فدوره هو إرشاد المؤمن إلى تفسير عملية الخلق على اعتبار أن هذه هى رسالته الكلية.

لقد تناول علماء الدين من المسلمين، على الرغم من تعدد اتجاهاتهم، موضوع «كتاب الكون». وتعد السمة المميزة لعلم الحروف، كونه علمًا يساعد على تنمية رؤية الكون بكل أبعاده بشكل متجانس وموحد، مما يجعل باستطاعة الإنسان قراءة كل ظاهرة من ظواهره حتى ظواهر ما وراء الطبيعة. ومثال على ذلك ما ذكره «الحروفيون» فى تأويل أجزاء الوجه البشرى. فقد رأوا أن كل جزء من هذا الوجه يمكن استبداله بحرف ومعنى، وفى هذا الصدد فإن التأكيد القائل «بأن الخلق كله كتاب» يستوجب توضيح أمرين:

أولاً: أن هذا الكتاب يجمع فى آن واحد بين ثلاثة عناصر: وجود متكلم أعلى، وهو هنا الخالق، ومستقبل وهو العقل البشرى ومحتوى الرسالة وهى الدلالات التى يعبر عنها خلق الكون، وتفرض طبيعة هذه الثلاثية على الصوفى، الباحث عن الحقيقة، أن يكون فى حالة روحية وعقلية خاصة، هذا لأن تلقى هذه الرسالة يفوق، بالطبع، القدرات العادية لعقله. فهذا النوع من المعرفة يتطلب حالة عقلية وفكرية نستطيع أن نطلق عليها اسم «التأمل». وينبه البونى

فى هذا الشأن قائلاً «لا تظن أن سر الحروف مما يتوصل إليه بالقياس العقلى، وإنما هو بطريق المشاهدة والنفحة الالهية.

ثانيًا: إن الصوفى، باعتباره جزءًا من الظاهرة الكلية للكون، لأنه منغمس فيها جسدياً وفكرياً وروحياً، لا يمكنه أن يكون بعيداً عن هذا الحقل وهو التحقيق فى ظواهر هذا الكون؛ فهو يسعى لفك رموز الرسالة الكونية مع كونه جزءًا منها أوقد نقول إنه هو الرسالة كلها.

فهو، كما فى علم الكيمياء، المادة والرمز فى آن واحد. وبالتالى، فهو لن يتمكن من إتمام تأويله الروحانى للعالم دون أن يفهم نفسه، وفى الوقت ذاته دون أن يتحول روحانياً؛ فالقراءة ليست عملية جامدة، فنحن لا نقرأ كتاباً دون أن نقوم بتقليب صفحاته، وهذا يعنى، بطريقة أخرى، أن كل مشاهدة أو تأمل، بمعناها الصوفى، تستوجب تحولاً للروح والفكر وهما وجهان لعملية واحدة.

إن التأمل فى علم «السيمياء» لا يتطلب جهداً فكرياً أو خيالياً بحثاً عن وضع الإنسان فى العالم: فهذا العلم يسعى أولاً إلى البحث عن فك رموز معنى وجود الإنسان وليس فقط فك رموز الكلمات التى نقرؤها فى الكتاب. وقد ذكر Frithjof Schuon أحد الصوفية المعاصرين قائلاً: "لقد خلق الله العالم كالكتاب، والوحى نزل على العالم على هيئة كتاب، ولكن على الإنسان أن يستمع فى الخلق إلى الكلمة الإلهية، وعليه أن يصعد إلى الله بواسطة هذه

الكلمة. فقد صار الله كتاباً بالنسبة للإنسان والإنسان يجب أن يصبح كلمة بالنسبة إلى الله» (٢).

إن علم الحروف هو علم تصريف الحروف، وفى اللغة العربية الحديثة، فإن كلمة سيمياء هى المرادف «للسحر الأبيض». ولا يهمنا فى هذا المقام، الشك الذى يحيط بعلوم السحر والتنجيم وندرة ما تركه الباحثون عن هذا العلم فى التاريخ الإسلامى، ولكن ما يعنينا هو أن نتذكر أن الاستخدام الشعبى لعلم الحروف، يبين أن التحول المنشود فيه هو تحول حقيقى وفعَّال، فإذا كانت اللغة هى كل شىء فى الكون، فإن الكلمة يمكن أن تصبح ذات قدرة تصريفية وتحولية.

فلقد استطاع المسيح، بوصفه سيد الكلمة كما يقول ابن عربى، أن يقوم بأعمال تتصف بإعجاز مثل شفاء المرضى، فكم يكون أثر التحول الباطنى للروح حاسماً وفعَّالاً بحيث يفوق المعجزات الخارجية....

إن تطور علم الحروف فى الإسلام كان موازياً لتطور علم التأويل القرآنى، وقد ازدهر هذا العلم فى بداية الأمر بين الشيعة، وتتفق جميع مصادر التراث على دور جعفر الصادق فى تأسيس هذا العلم، ثم اهتم به المحققون فى فنون السحر، إلا أن دوره فى اكتشاف قوانين الكيمياء فى مدرسة جابر بن حيان، كان عظيماً ومؤثراً(٣). و فضلاً عن ذلك، فقد أولت المذاهب الإسماعيلية ذات الميول الفلسفية اهتمامًا كبيرًا بهذا العلم كما سنرى فيما بعد، وقد

ترك البعض من أصحاب العقيدة الشيعية الاثنى عشرية، مثل رجب البورصى، تأملات وأعمال كثيرة ذات أهمية كبيرة[٤] فى هذا المجال. ثم ما لبث أن انتشر الاهتمام بهذا العلم فى الأوساط السنية والصوفية فى القرن التاسع الميلادى، الثالث الهجرى، كما يقول لويس ماسينيون، وكان أساساً لتطورات عديدة اتخذت اتجاهين أساسيين:

من جهة، أصبح هذا العلم الركيزة الأساسية للتأملات الصوفية التى بلغت ذروتها فى كتاب ابن عربى. ومن جهة أخرى، اهتمت به الكتب والنصوص المخصصة للسحر والتنجيم؛ ومن أشهرها كتاب «غاية الحكيم» لمسلمة بن أحمد المجريطى إمام أهل الأندلس، وكتاب «شمس المعارف» للبونى. وهدفنا فى هذا العمل، ليس سوى البحث عن العامل المشترك الذى يجمع بين كل تلك النصوص المختلفة الاتجاهات العقائدية ما بين شيعة وسنة، أو بين الشيعة والاتجاهات الأخرى، وسوف نكتفى بتقديم نبذه عن النظريات والتطبيقات الروحانية لعلم الحروف فى العصور القديمة.

مبادئ ونظريات

إذا ما استعرضنا خطى أصحاب المذاهب والعقائد فى علم السيمياء فى جميع أنحاء العالم شرقاً وغرباً، نلاحظ أن هناك اتجاهًا فكريًا مشتركًا يجمع بينهم جميعاً، وإذا اكتفينا بذكر التيارات الغربية، سنجد على الفور أن أهمها هو المذهب

الفيثاغورثى والمدارس الأفلاطونية وعلم القبَّالة اليهودى وأصحاب الرؤى والبصائر المسيحيين من أمثال ماركوس الفنوصى.

وترتكز أفكار هذه المذهب على ملاحظة بسيطة تعد نقطة انطلاق هذا العلم وهى أن مجموع الظواهر الكونية التى يمكننا ملاحظتها هى نوع من التكرار التراجعى لبعض الأحداث القابلة للقياس التى تربطها علاقات نسبية، ويمكن تطبيق هذه الملاحظة على الكون الكلى بما فيه حركة الأجرام السماوية، كما على الكون الجزئى مثل العلاقات التى تربط العناصر فى جسم الإنسان، كما يمكن تطبيقها ولكن بشىء من الحذر على العالم النفسى الإنسانى والذى أظهر، على سبيل المثال، أثر الموسيقى والانفعالات الجمالية الأخرى على الحالة النفسية للإنسان، فالإحساس بالجمال يرتكز بشكل ما على وجود انسجام وتوافق بين العناصر، وبهذا المعنى، يصبح «كل شىء عددًا» سواء كان ذلك يتعلق بمعطيات العالم الخارجى أو بقدراتنا الفكرية الأصلية.

لقد سلك كثير من المفكرين والعلماء الروحانيين المسلمين هذا الطريق، منذ أوائل التاريخ الهجرى، غير أنهم أصبغوا عليه صبغة الدين الجديد، والمثال البارز على ذلك، هو كتاب «علم الموازين» لأحد كبار العلماء القدماء فى الكيمياء وهو جابر بن حيان. «فالموازين»، كما ذكر ابن حيان، هى مجموعة من العلاقات البدائية يتولد عنها مجموعة خاصة من الظاهرة.

لقد قام جابر بن حيان، متبعًا نظامًا خاصًا، بدراسة الأشكال المختلفة للموازين وذكر عددها وهى: ميزان الفكر وميزان الروح وميزان الطبيعة وميزان الشكل وميزان الكواكب وميزان العناصر الأربعة الأساسية وميزان الحيوانات وميزان النباتات والمعادن، ويعد ميزان الحروف هو أكثر الموازين كمالاً ويتكون من ثمانية موازين هى أساس العلم الإلهى.

لماذا هذا الاهتمام الجوهرى بميزان الحروف؟

يرجع هذا الاهتمام إلى أن الحروف تشمل كل المعرفة، فالعدد يظل، فى الواقع مجرد، «روح» وسبب شكلى نقى يمنح القوة ويفسر اتجاهات الظواهر دون التعبير عنها فى شكلها الظاهرى.

أما الحرف فهو يعطى للعدد المعنى الخارجى بكل كائن وكثافته الدلالية الخاصة وشموره باعتباره «جسدًا» لهذه الدلالة.

إن علم السيمياء هو إذًا، علم الأعداد بواسطة الحروف. فكل حرف، كما سبق أن أشرنا، يحمل قيمة عددية. فحرف الألف، على سبيل المثال له عدد (١) وحرف الباء = (٢) والجيم = (٣) والدال = (٤) ‎٠٠٠٠٠‎ إلخ. إلى أن نصل إلى الياء تبدأ مرتبة العشرات ومع حرف القاف تبدأ مرتبة المئات.

وهذا النظام نجده فى الأبجدية العبرية والآرامية، حيث يُضاف الحروف الستة الخاصة باللغة العربية إلى الأعداد من ٤٠٠ إلى ٩٠٠ . واستمر العمل بهذا النظام حتى يومنا هذا، حتى بعد ظهور

الأعداد الهندية وانتشار استخدامها فى الدول الإسلامية بدءاً من القرن التاسع.

ويقوم هذا النظام على فكرة أن الحرف «جسد» أما العدد فهو روح، فقد ذكر البونى قائلاً: «اعلم أن أسرار الله ومعلوماته اللطائف والكثائف والعلويات والسفليات والملكوتيات على قسمين، أعداد وحروف. فأسرار الحروف فى الأعداد وتجليات الأعداد فى الحروف، فالأعداد العلويات للروحانيات والحروف لدوائر الجسمانيات والملكوتيات»(٥).

وهنا يتعين علينا إلقاء الضوء على هذه العلاقة: العدد يظهر فى الحرف والحرف يجد حياته وإيقاعه ووزنه بواسطة العدد، وتظهر هذه العلاقة المتوازية بجلاء فى تكوين الكون، فالعدد أى الروح يمثل معطيات العالم الأصلى أى عالم الجبروت، والحرف الصوتى يمثل عالم الملكوتيات، أما الحرف المكتوب فهو يشير إلى عالم الجسمانيات الكثائف.

ومن هذا المنطلق، يقرأ المفكرون فى علم السيمياء مجموعة حركة وإيقاعات العالم باستخدام حروف الأبجدية العربية الثمانية والعشرين وقد يستخدمون أيضاً الحروف الأربعة الخاصة باللغة الفارسية.

فكل كيان يتأثر بحرف أو أكثر سواء كانت كيانات غير مرئية مثل الملائكة أو كيانات مرئية، كذلك الحال بالنسبة للكواكب

والمجرات وكل برج من الأبراج وكل يوم من أيام الأسبوع، بل أيضاً كل ساعة من ساعات اليوم الواحد، ويطبق هذا التأثير الحرفى أيضاً على العناصر الطبيعية كل بحسب كثافته.

وإلى جانب هذا التقسيم ظهرت تقسيمات أخرى مختلفة خاصة باللغة العربية حيث تقسم الحروف بطريقتين: الطريقة الأولى تنقسم فيها الحروف إلى شقين، الشق الأول مكون من ١٤ حرفاً وتسمى الحروف النورانية والتى تبدأ بها بعض السور فى القرآن، الشق الثانى مكون أيضاً من ١٤ حرفاً وهى الحروف الظلمانية. أما الطريقة الثانية، تتعلق بطريقة نطق لام التعريف؛ فهناك الحروف الشمسية التى تدغم لام التعريف وهى ١٤ حرفًا، أما الحروف الأربعة عشر الأخرى فتسمى حروف قمرية وهى التى تظهر فيها لام التعريف.

وهكذا تكون القراءة للكون كله بدءاً من الذرات الأرضية حتى كرسى العرش، أشبه بنظام هائل من الأضداد التى تربطها صلات مستمرة من الكلمات، كمجرة من الدلالات شديدة الاتساع ذات مرجعية دائمة من المعطيات الجديدة للفكر الكونى المتحرك.

ولنا فى هذا المقام ملاحظتان تتعلق بهذه الرؤية:

الملاحظة الأولى: هى أن علم السيمياء يهدف إلى التعريف بكل ما يظهر فى الوجود بكافة مستوياته بدءاً من الظواهر الكونية إلى الظواهر الخاصة أى من الروحانيات إلى الجسمانيات الكثيفة، فهو

علم يرمى إلى معرفة شكل أو مظهر كل كيان من الكيانات، وهى الحروف وأيضاً الطاقة التى تحركه وهى الأعداد، كل ذلك داخل تركيبة واحدة، فهذا العلم يتيح الانتقال من مجال إلى آخر بفضل نظام محدود من التواصل الوفقى حيث إن هناك ٢٨ دلالة فقط هى العاملة فيه.

ويمكن إعطاء مثال بسيط وواضح على ذلك، عندما يرغب شخص ما استمالة مشاعر شخص آخر باستخدام السحر الأبيض، فإنه يكوّن طلسمًا من الحروف ويستخدمه فى يوم محدد وساعة محددة ومكان محدد مع ترديد بعض الأدعية المناسبة للهدف المنشود وذلك باستخدام وفق مخصص لذلك.

وعلى الرغم من أن المثال متواضع الأهمية، إلا أننا نستطيع أن ندرك بواسطته أن الاستعانة بالسيمياء فى "القراءة الرأسية" كما أطلق عليها كوربن، عند وقوف الإنسان للصلاة، فتصله قراءة القرآن بصيرورته المجردة، يتطلب ذلك استعداداً أكثر روحانية وأكثر عمقاً كما يوضح الحروفيون وابن عربى.

أما الملاحظة الثانية: فهى أن السيمياء لغة فى حد ذاتها، كافية للتعبير عن العالم والكون، بل وتساعد على الحد من استخدام المفردات الفلسفية الثقيلة التى لا تتسم بالمرونة وتصلح لوصف الأشياء الجامدة الثابتة أفضل من الأشياء المتغيرة، أما علم السيمياء فهو يصلح للتعبير عن الظواهر باعتبارها مجموعة من

النظم والعلاقات: فالحرف لا يكتسب معناه إلا داخل الكلمة والكلمة بدورها لا فائدة لها إلا فى إطار الجملة.

فمن الواضح أن كل حرف من حروف الأبجدية يشارك فى عدد لا نهائى من العلاقات فى كل مستوى من مستويات الوجود؛ فكل حرف علامة استدلالية للوجود، أما حقيقته الأرضية فى اللغة العربية، فهى ليست سوى تعبير خاص ومحدود المعنى.

ومن جهة أخرى، فالحرف هو التعبير عن الكون فى ديناميكيته أى فى حركته الدائمة. فكل شىء فى الكون متحرك بشكل دائم وهذا يجعلنا ندرك أنه لا وجود للقراءة الجامدة الثابتة.

لقد أصبح بالإمكان، بواسطة السيمياء، استخدام هذه التركيبة من الظواهر وذلك بإجراء كثير من التحولات والتركيبات الحروفية والانتقالات العددية وجميع الطرق الأخرى الخاصة بعلم الحروف.

ولكن علينا أن نتذكر أن هذه التركيبات الحروفية لا تهدف إلى إقامة علاقات مجردة أو إرساء نوع من الوجود الإحيائى قبل وجود الحرف فحسب، ولكنها نوع من القراءة الكشفية التعليمية.

تطبيقات

لقد أدت رؤية أهل الباطن المسلمين لحركة العالم، إلى توزيع مجموعة الحروف الأبجدية على كل الظواهر الملموسة والملحوظة. ويعد رقم (٢٨) وهو عدد حروف الأبجدية، رقماً ثرياً من حيث

عملياته الحسابية وأيضاً بسبب علاقته الوثيقة بالعدد (٧) سواء في الجمع أو الضرب.

ونذكر هنا، أن الجمع هى العملية المعبرة عن الخلق، لأنها اتحاد عددين. على سبيل المثال جمع (٣) و (٤) ينتج عنها عدد ثالث وهو (٧) تختلف خصائصه الحسابية تماماً عن عدد (٣) و (٤). أما ضرب ٣ × ٤، فعلى العكس سينتج عنه العدد (١٢) الذى له نفس خصائص مضاعفاته، وهذه العملية تشبه عملية التكاثر البشرى التى تنتقل فيها الخصائص وتنتشر دون أن تكتسب خصائص مختلفة عما كانت عليه.

إن هاتين العلاقتين، أى حركة وديناميكية الخلق وانتشاره، نجدهما فى العدد (٢٨) فهو العدد المثلث للرقم ٧ (٧+٦+٥ ٠٠٠٠ +١= ٢٨) وهو أيضاً أحد مضاعفاته. وبالإضافة لذلك، فهو عدد كامل وتام (١٤+٧+٤+٢+١=٢٨) وتلك خاصية نادراً ما نجدها فى الأعداد التى تقل عن الألف، وهناك الكثير من العلاقات الحسابية الأخرى التى يمكن ذكرها فى هذا المجال، ولكننا سوف نكتفى بتوضيح أن توزيع الحروف الثمانية والعشرين فى الطبيعة على عنصرى الزمان أو المكان كان بالشكل التالى:٧ كواكب، ٧ أفلاك، ٢٨ منزلة قمرية، ٤ جهات أصلية، ٧ أيام... إلخ. وهناك أيضاً توزيع آخر ولكنه توزيع لغوى بحت (صوتى وكتابى ورمزى) يتم بين الحروف المقفلة والاحتكاكية أو بين الحروف الشمسية والقمرية

أو المنقوطة وغير المنقوطة إلخ. وأخيرًا بين الحروف النورانية والحروف الظلمانية.

إن هذه الأبجدية العربية الكاملة، هى فى النهاية مجموع لكائن كامل يمتلك روحًا وجسدًا كما ذكر كتاب «غاية الحكيم» الذى يعد من أعظم الدراسات فى علم التنجيم وتم ترجمته إلى اللاتينية بعنوان "Picatrix".

فهذه الأبجدية لا تهدف إلى تنظيم العالم فحسب، بل تعتبر هى تكوينه وتكوين الإنسان الكونى.

ولن نستطيع، بالطبع، فى هذه الدراسة، استعراض جميع رموز مجموعة الحروف العربية، ولكننا سنكتفى بشرح معنى أول حرفين من الأبجدية وهما حرف الألف والباء، اللذين يحتويان، طبقاً لمفهوم الباطنية، على أصل باقى الحروف الـ ٢٦.

إن الألف هو أول الحروف فهو مبتدأ الوجود والانتقال من الغموض إلى الوجود، ويكتب حرف الألف كعلامة مستقيمة (ا) فالألف هى محور العالم وقطب جميع حروفه وعدده (١) وتفصيل استنطاقه ال ف والعدد من ذلك (١١١)(٦)، تماماً كما فى كلمة قطب وعددها (١١١) (ق ١٠٠ + ط ٩ + ب ٢ = ١١١).

فقد روى فى الأثر أن الله أول ما أظهر من خلقه نقطة مضيئة، فلما نظرت إلى ظهورها وتكوينها، أظهرت التواضع بالشكر لله على إظهاره إياها، فرامت السجود، فلما نظر الله إلى تواضعها وشكرها

إياه، أذن لها بالسجود، فامتدت، فصارت ألفاً. لذلك كان أول ما ظهر فى الكون هو الألف.

ويبين رجب البورصى أن الألف مكونة من ثلاث نقاط تنحدر منها باقى الحروف[٧].

فحرف الألف، إذًا، بلغة الفلاسفة، هو الأول المبدع وفى النصوص الصوفية نجد أن له قيمتين:

القيمة الأولى أنه حرف متصل بالله المحتجب الباطن اللانهائى الذى ليس كمثله شىء.

أما القيمة الثانية: فهى تشير إلى العقل الكونى الأعلى، الكلمة العليا، المبدأ والقوة الفعَّالة للخالق.

إن هاتين القيمتين، تحتويان على الازدواجية نفسها التى نجدها فى وحدة الحرف والتى يطلق عليها الصوفية الأحادية أى وحدة الوجود المطلق، الذى لا مثيل له وليس له ثانى، كما أنهما التعبير عن الوحدة البسيطة بالنسبة للأعداد الباقية والتى يطلق عليها أصحاب المذهب «الأكبرى» الواحدية.

وهناك بعض المذاهب الأخرى، التى تعطى للباء القيمة العددية (١)، أما الألف فليس له عندهم قيمة عددية. فهل نطلق على ذلك تناقضًا أم اختلافًا فى الفكر؟

بالطبع، ليس هناك أى اختلاف فكرى ولكن الاختلاف فى الرأى مطلوب وهو هنا اختلاف على بينة وبصيرة، لأنه التعبير عن الانتقال غير المتصور من اللاوجود إلى الوجود.

فما الألف؟ هى نقطة تلاقى للطاقة الغامضة مع الشكل النقى الكامل ألا وهو العدد، وها هو الوجود، يعبر عن عملية التلاقى نفسها، فأحد وجهى الوجود يولد الكائنات المتعددة فى حين أن الوجه الأخر، يشير إلى اللانهائية الزمنية، وكل من الوجهين ملتصق بالآخر لا يمكن أن ينفصل عنه.

إن مغزى تلك الرؤية الفلسفية يمكن توضيحه بواسطة الملحوظة التالية:

إن العلماء المسلمين عرفوا (الصفر) فى عهد مبكر حوالى ٨٢٠م وقد ويكونان قد عرفوه قبل ذلك. غير أن الصفر لا يدخل ضمن تأملات وحسابات السيمياء لأنه على عكس الافتراضات التى ذكرها Alain Nadaud فى كتابه «التكوين الأثرى للصفر»، فإن المفكرين المسلمين لم يعتقدوا مطلقاً أن اللاوجود هو العدم، بل نظروا إليه على أنه شىء غير محدد نقى وكامن، أما الوجود فهو شكله وتكوينه، وهذا ما يوضح أن الصفر أو العدم ليس له مفهوم عددى فى علم الحروف.

أما حرف الباء فقد نتج عن الألف وقيمته العددبة (٢) وتفصيل استنطاقه ب ١. وهنا يبين رجب البورصى أن النقطة فى حرف الباء هى دليل على وجود الألف وهو الحرف المؤسس.

وحرف الباء هو أول وجود متميز، وقد بدأ به الخلق الحقيقى أى الازدواجية أو كما يطلق عليه علماء السيمياء الخطاب الإلهى. ويذكر الباطنية أن القرآن بدأ بحرف الباء (البسملة).

إن الصلة الجدلية بين حرف الألف والباء نشأ عنها باقى الحروف الأصلية، ثم بواسطة الصلات التى توجد فيما بينها تكونت أسماء الله الحسنى التى بدورها نتجت عنها كل ظواهر الكون، إن ذكر عملية النشوء كما وصفها الباطنية فى هذه الدراسة قد تثير الضجر والملل ولكننا سنكتفى بذكر مثال بسيط على ذلك وهو أن فيض الحركة الرأسية المستقيمة للانبثاق الكونى قد نشأ عن مثلث حرفى وعن أنماط من التركيبات المثلثية الحرفية. وقد كان أول مثلث حرفى هو الألف وموضعه فى زاوية القمة والباء والجيم اللذان أصبحا بدورهما فى قمة مثلثات جديدة تعبر عن الحركة والديناميكية الدائمة للظواهر.

وفى المقابل، فإن المستويات الأفقية وهى عوالم الجسمانيات الكثيفة، تعبر عنها المربعات، فعلى سبيل المثال يتم التعبير عن الملائكة الأربعة حاملى العرش بمربع مكون من الألف والباء والجيم والدال، وتزداد المربعات كثافة مع عناصر الطبيعة الأربعة فى علم الكيمياء والطب وهى الطبائع النارية والهوائية والمائية والترابية.

المؤلفات

لم يكن هدف السيمياء الأساسى هو الفلسفة أو التعبير عن الحقائق المجردة لما وراء الطبيعة، بل كان بالطبع الرغبة فى تأويل الروح بإرجاعها إلى مستواها الأنطولوجى الأصلى الأول. وقد كان، دون شك، السند الأساسى فى ذلك هو القرآن، ومن يستطيع كشف

المعانى المتسامية فى القرآن، يكتشف أنه يحتوى، كما يذكر الصوفية، على كل الطاقات النورانية التى تحتاجها الروح لكشف أسرار ذاتها.

وتتطابق فى أغلب الأحيان، طرق أصحاب علم الحروف مع طرق القبَّالة مثل الاستنطاق وتحويل الحروف إلى أعداد ثم العودة إلى بسط وكسر واستنطاق الحروف.

أما التأملات الصوفية عن الحروف النورانية والظلمانية فهى تعتبر كما ورد فى كتاب «غاية الحكيم» من خفايا وألغاز القرآن.

ولا يسع المجال هنا للحديث عن جميع هذه الطرق وتطوراتها، ولكننا سنذكر فقط أنه إذا كان الحرف يتيح كشف الحقائق الروحانية بواسطة الكسر التدريجى، فإن ذلك من شأنه أن يقود إلى كشف ما وراء الحرف أى سره الباطنى، ويتضح هذا فى عملية «التحقيق» عن اسم الله الأعظم التى يقوم بها أتباع الصوفية.

إن الصوفيين الذين ظهروا بعد ابن عربى، يعتقدون أن الله قد خلق العالم بواسطة أسمائه الحسنى الـ ٩٩. فهذه الأسماء، هى بمثابة القوالب التى حددت تكوين وتشكيل العوالم والموجودات على جميع المستويات.

ويسعى الصوفى، مثل آدم، بواسطة التحقيق والكشف إلى الوصول إلى هذه الأسماء التى سترشده إلى المعرفة الباطنية للكون، بيد أنه يعلم منذ بداية طريقه، أن معرفة الأسماء الـ ٩٩،

ستظل ناقصة دون الكشف عن اسم الله الأعظم وعدده (١٠٠) وهو الذى يحتوى وينشئ الأسماء الأخرى.

ومن يكتشف هذا الاسم، يكون له سلطان على كل شىء فى الكون ويكون أيضاً قد انتهى من مرحلة التحقيق. ولقد تعددت التأملات المتعلقة بهذا الاسم المحتجب، فهناك مَنْ يطلق عليه «الله» أو «محمد» أو «على» وهم الشيعة، والبعض الآخر يذكره باسم الإشارة «هو» لذلك فإن عدده قد يكون ١٢ أو ١٧ أو ٢٨ أو حتى ٣٦.

وكان «البونى» الوحيد الذى ذكر فى كتابه «شمس المعارف» عشرات من هذه الأسماء ولكنه أوضح أيضاً سبب هذا التناقض الظاهرى الذى يظهر بينها، وهو أن هذا الاسم الأعظم ينظر له كل صوفى بطريقة شخصية ذاتية، تختلف عن نظرة الآخر. وهذا يرجع إلى أن هذا الاسم الأعظم هو، فى نهاية الأمر، الإنسان فى حقيقته الباطنية، وهو اسمه الحقيقى المحتجب، إن الصوفى الذى يتمكن من اكتشاف الاسم الأعظم، أى اسمه، يكون قد امتلك التعويذة السامية التى تتيح له الدخول فى مرحلة الغنوص، بيد أنه، فى ذات الوقت، يعلم أن «الكلمة» حجاب، أى أنها غير ذات فائدة، وكما يذكر «النفرى» قائلاً «إذا كانت الكلمة حجابًا، فإن الحجاب كلمة».

إن الفهم الأوحدى لله، يجعل هذه الرؤية غير ذات جدوى، وهنا أيضاً نلاحظ وجود اختلاف بين العارفين بعلم الحروف الذى يقبل فيه الصوفى التلاشى فى عملية سامية من الجهل.

فقد ذكر «سهروردى» قائلاً: «مَنْ لا يتكلم، يصبح بكل كيانه لغة، فبالصمت فقط يكون قادراً على التعبير عن أعماق ذاته».

«الكلمة حجاب، والحجاب كلمة» ها نحن قد عدنا إلى نقطة البداية وهى تزامن الفعل مع التأمل والمشاهدة، وجهان لحركة واحدة، كأنها رسالة واحدة تعكسها مرايا متعددة؛ لأن الصوفى، يكتشف، عند تفسيره لهذه الكلمة التى هى ذاته، مدى اتساع الخلق وأنه ليس سوى حقل من المشاهدة فى الوعى الإلهى، والمشاهدة الحقة، من جانب الإنسان، هى فعل مؤثر لا يستطيع العالم الاستمرار فى وجوده دونها.

فصلاة الله هى فعل بالنسبة للإنسان، أما صلاة الإنسان فهى فعل فى الوجود الإلهى، إنه نوع من التبادلات تتم بتحويل جزر كلمة «إبداع» وهو «ب د ع» وحرفه الثالث (العين) إذا وضع فى البداية ينتج عنه الجزر «عبد» ويشتق منه كلمة «إبداع» أى «عبادة». ففى هذا التفكير الدائم بين «الخلق والتعبد» يكمن كل معنى القراءة الحقيقية فى علم الحروف الصوفى.

* * *

علم الحروف فى العصور الوسطى

تهدف هذه الدراسة، إلى تتبع الخطى الأولى لعلم الحروف الصوفى خلال القرون الأربعة الأولى من التاريخ الهجرى وتسليط الضوء على الغاية الفلسفية التى تحققت من ورائه.

إن علم الحروف، فى واقع الأمر، هو أحد أوجه العلوم الباطنية القديمة المتأصلة فى التراث الدينى حيث ينكشف وجود الله بصفة أساسية بواسطة الكلام، ويظهر فى هذا العلم، تأثير التأملات التأويلية القديمة عن «الحروف المقطعة» التى تبدأ بها بعض السور فى القرآن.

فإذا كانت بعض الأحاديث السنية تنوه عن القيمة المقدسة لبعض الكلمات والصيغ والحروف فى القرآن أو الاسم الأعظم، فمما لا شك فيه، أن الكوفة كانت مولدًا لبداية الاهتمام بالكلمة الإلهية وطرق معرفتها واستخداماتها، وقد كان للشيعة الباطنية السبق فى هذا المجال بدليل وجود بعض الوثائق والرسائل المنسوبة إلى «على بن أبى طالب» والتى تحتوى على معلومات طفيفة عن العقيدة الحسينية ولاسيما مذهب «المغيرة بن سعيد» ورؤيته التصويرية عن جسد الله النورانى المكون من الحروف الهجائية يفيض منها الاسم الأعظم لبث الروح الخلاقة التى أنشأت الكون. وهناك أيضاً بعض الوثائق التى ترجع إلى المذهب الإسماعيلى القديم، وتشير إلى نشأة الوجود بعد ذكر الله للحروف والكلمات.

ولذلك فقد قمنا بتحليل الفصل الثانى من كتاب «الكشف» لجعفر بن منصور (القرن العاشر الميلادى) الذى يشرح فيه كيفية انتشار عناصر الكون من تركيبة معقدة من الحروف، فما بين الظاهر وهو «الكرسى» والباطن «العرش» تتدرج الكائنات منذ بدء نشوئها المجرد حتى العالم الأرضى فى اتجاه مواز لظهور الحروف

سواء كانت حروف فى البديهة أو منطوقة أو مكتوبة فى الكتاب الكونى الإلهى، كل ذلك طبقاً لحسابات خاصة بعلم الإمامة الإسماعيلية أو السبعية.

وفضلاً عن ذلك، فهناك بعض المفاهيم العقائدية الأخرى الخاصة بالطائفة الإسماعيلية، قام بإلقاء الضوء عليها «أبو حاتم الرازى» و «أبو يعقوب السجستانى» فى كتابه «كتاب الافتخار» والتى تكشف عن اختلاف فى المحتوى الفكرى على الرغم من التشابه فى الأهداف العامة.

وتوضح هذه العقائد بداية الوجود على هيئة انبثاق لبعض الحروف تولد من حروف أخرى؛ فكتاب «الكشف» يعرض الحروف الأم على أنها ا ب ت ث ج ح أما فى كتاب «الافتخار» فهى ك و ن ى ق د ر. وعلى الرغم من هذا الاختلاف إلا أن الاتجاه الفكرى لكلا الكتابين متقارب.

وإذا كنا لا نستطيع حسم السبب فى هذه الاختلافات، إلا أننا نعتقد أن الغاية الجوهرية لهذه العقائد، هى عرض الخطوط الرئيسية لنظام الإيقاع الكونى، الجامع لقوانين العالم الطبيعى ولاسيما علم التنجيم، بالإضافة لمسيرة الرسل الأئمة، وذلك بواسطة الرمز الحرفى، فالهدف الرئيسى هنا، هو إلحاق بعد كونى لرسالة الأئمة ورسم آفاق لقيامة الإمام القائم.

ونجد فى هذين الكتابين، كما فى كثير من كتب الشيعة المتعلقة بعلم الحروف، كثيرًا من التأملات حول «علم الآخرة». كما نلحظ أن

كثيرًا من كتب التراث التى تناولت أسرار ومعانى الأعداد، قد تأثرت بأفكار الشيعة الاثنى عشرية. والبعض من هذه الكتب يرجع تاريخه إلى عهد قديم، وعندما انتشر الفكر الدينى العقلانى الذى ساد المجتمعات الشيعية ما بين القرن العاشر والحادى عشر الميلادى، وضعت هذه الأعمال على هامش العقيدة. ولا ننسى، فى هذا الصدد، أهمية أعمال «حيدر الآملى» و «رجب البورصى» (١٤١١ م) والتى قام بدراستها «هنرى كوربن» وفيها تظهر محاوله أيجاد صلة بين حروف الهجاء و أصل وجود الكون وعلم الإمامة.

لقد قمنا أيضاً بدراسة التأملات الحروفية الصوفية التى ظهرت فى القرن الثالث الهجرى والتى تعد بشكل ما امتداداً للدراسة التى قام بها Denis grill عن علم الحروف فى كتاب «الفتوحات المكية»[٨] لابن عربى.

وعلى الرغم من قلة إنتاجهم عن علم الحروف، إلا أن الكُتَّاب الصوفيين قد أظهروا نضجاً عقائدياً مذهلاً فيما يتعلق بهذا الموضوع، ومن أوائل النصوص التى خضعت للدراسة، كتاب «ختم الأولياء» للترمذى الحكيم (حوالى عام ٨٦٨ هـ) التى نجد بها تنويهات عن فكر باطنى حروفى ناضج ولاسيما فى الجزء الخاص بالتساؤلات فى الفصل العاشر من طبعة عثمان يحيى.

ومن أئمة الكتب، هناك أيضاً كتاب «رسالات الحروف» لسهل التسترى (حوالى عام ٨٩٦) وكتاب «خواص الحروف وحقائقها وأصولها» لابن مسرَّة (عام ٩٣١). ونجد فى هذه الأعمال علاقة

توازٍ بين علم النحو والمعطيات القرآنية والنظام الكونى وهى التى تناولها ابن عربى فى كتابه «الفتوحات المكية» بكثير من التوسع لكن انطلاقاً من القاعدة نفسها.

ومن بين القضايا المهمة التى أظهرتها هذه الدراسة: دور الحروف فى الكلمة والفعل الإلهى، نظراً لكونها أجزاء أساسية فى التكوين الكونى وعوامل ناقلة للطاقة الخلاقة. بالإضافة لوظيفة أسماء الله الحسنى فى تكوين العوالم والخطاب الإلهى باعتباره العنصر الباطنى للكون وتوافق وتجانس الحركة الكونية والتبادلات الحرفية بين الحروف الساكنة والمتحركة أو بين العلامات الفلكية وتقسيم الحروف النورانية الأربعة عشر فى سور القرآن التسع والعشرين ذات الفواتح.

وبالإضافة إلى ذلك، تناولنا بعض النصوص ذات المحتوى الصوفى المحض مثل «كتاب الطواسين» للحلاج وكتاب «المواقف» وكتاب «المخاطبات» للنفرى. ولقد لاحظنا أن مغزى التأملات فى هذه الأعمال لم يكن العلم الكونى أو التأويل ولكنها تهدف إلى دراسة اللغة باعتبارها الطريق الوحيدلمعرفة الله وكشف أسراره وأيضاً باعتبارها حجابًا عازلاً يحجب الله عن الوعى الصوفى.

إن فهم اللغة الباطنية من شأنها إجراء نوع من التحول الكيميائى العقلانى الغريب تكون فيه مهمة اللغة أو الكلام هى فى المقام الأول الوصول لمرحلة الصمت الصوفى الوحيد القادر على خوض تجربة التوحد مع الوعى الإلهى، ثم ترجمة هذه الحالة

الجديدة من الوعى التوحدى الذى استطاع الصوفى بلوغه، بالكلام.

لقد قمنا بتخصيص جانب من هذا العمل لدراسة إشكالية بعض النقاط الخاصة بهذه التأملات القديمة مثل:

- علم حساب الحروف بطريقة ا ب ج د والعلاقات الحسابية التى نتجت عن تطبيق هذه الطريقة.

- الحروف المقطَّعة فى القرآن والتى تفتتح بها ٢٩ سورة قرآنية ولم يستطع علم التأويل أن يفك رموزها أو يوضح مغزاها ولكنها كانت مثاراً لتأملات كثيرة من قبل المفكرين الصوفيين.

- قضية الاشتقاق الأعظم التى عرضها، «ابن جنى» عالم النحو الكبير فى عام ١٠٠١م ٣٩٢هـ فى كتابه «كتاب الخصائص». والمقصود بهذا الاشتقاق، اكتشاف المفاهيم والمعانى الغامضة لجذر الكلمات التى تختلف فى ترتيب حروفها على الرغم من اشتراكها فى نفس الحروف مثل «ج ن ى» و «ن ج ى»[٩] أو الكلمات التى تشترك فى حرفين مثل «ح ر ق» و «ح ر ك».

وعلى الرغم من أن هذه الأبحاث تعد من اختصاص علماء الصرف، إلا أن الباطنية قد أعادوا، عند الحاجة، استخدامها.

ثم اتبعنا هذه الدراسة بتحليل بعض النصوص الرئيسية التى تناولت هذه القضايا، طبقاً للتسلسل الأبجدى للكُتّاب، فكان أول نص خضع للتحليل هو كتاب «رسالة النيروزية فى معانى الحروف

الهجائية» لابن سينا والذى يعد كتاباً فريدًا سواء فى مجال علم الحروف أو من حيث أهميته ضمن مؤلفات ابن سينا، ففى هذا الكتاب، يحدد ابن سينا القيمة العددية لبعض الحروف طبقاً لمراحل بداية تكوين الوجود. على سبيل المثال، فإن خلق العقل الأول بواسطة الله الخالق يساوى العدد (٥) أى حرف (الباء). ثم يقوم ابن سينا ببعض العمليات الحسابية مثل الضرب والجمع، يتم تحديدها طبقاً للحالة، وبعد ذلك يصبح بمقدوره تفسير البدايات الحرفية للسور فى القرآن على أنها إشارة لعلم الكونيات.

وعلى الرغم من قصر هذه الدراسة، إلا أنها شديدة الأهمية نظراً للاستنتاجات الطموحة التى توصل إليها الفيلسوف الكبير، على الرغم من صعوبة التكهن بالهدف الحقيقى الذى كان يصبو إليه ابن سينا[١٠] من وراء هذا العمل.

وإلى جانب ذلك، انصب اهتمامنا على النصوص الصوفية المحضة مثل كتاب «نحو القلوب» للقشيرى (عام ١٠٧٤) الذى يضم بعض عناصر الفلسفة الكلامية مع أفكار وتأملات الطائفة المشرية حول العلاقات بين الكلمات فى اللغة البشرية، وصفات الأبدية التى ألحقتها الحكمة الإلهية على كل الأشياء فى الكون، بيد أن أهمية هذا الكتاب تكمن فى محاولته خلق علاقة تبادلية بين قواعد النحو العربى والخُطى الصوفية الروحانية، فهو يفترض، على سبيل المثال، وجود علاقة متوازية بين «الرفع» وصعود الإرادة الروحانية، وبين «النصب» وحركة الجسد من أجل طاعة الله، وبين

«الخفض» وخنوع الروح البشرية فى إذلال تجاه الخالق، وهكذا فإن تصريف الأفعال وطرق إعرابها وقواعد بنية الجمل يتم تفسيرها من منظور معطيات الروحانيات والورع الصوفى.

ورغم هذه الاجتهادات، إلا أن هذا العمل متواضع الأبعاد العقائدية، لأن هدفه لم يكن تقديم دراسة فى علم الأديان، ولكن إثارة فضول التفسير القياسى لدى أتباع الصوفية دون التسبب فى إثارة غضب الحروفيين المسلمين بتقديم دراسة باطنية شديدة الجرأة.

إلا أن الجزء الأكبر من هذه العمل، تم تخصيصه لدراسة نصوص ابن عربى فى علم الحروف ولاسيما الفصل الثانى من كتاب «الفتوحات المكية». ولقد قمنا باختيار بعض النصوص التى خضعت لتحليل دقيق مما أظهر تنوعها الكبير. الحقيقة أن ابن عربى لم يفترض نظاماً محدداً للحروف، ولكنه قدم صورًا و بيانات متنوعة ومتتالية عن وظائف الحروف العربية فى جوانب متعددة من العلم الكونى مثل: نشأة العوالم - تقسيم الكائنات الحية - العلامات الكونية خاصة النجوم...إلخ . ويستوحى ابن عربى قوانين هذا التصنيف المتنوع من نمط ظهور الحروف فى القرآن، وشكلها الخطى وسماتها الصوفية وقيمتها العددية ...إلخ. وأحيانًا، تكون هذه البيانات نابعة من «كشف» صوفى روحانى. وهنا ليس بالضرورة أن يظهر منطق خارجى للتصنيف. وبين الأمثلة المختارة لتوضيح هذه المسألة، والتى أثارت اهتمامنا، تأويل حرف الألف

الذى نشأ من لام الألف والألف لام، والباء التى نشأت من «البسملة» ومن بعض الآيات فى سورة الفاتحة، وقد قام ابن عربى بعرض جميع هذه التأملات فى إطار أوسع وهو العقيدة «الأكبرية» و رؤيتهم العقائدية عن أسماء الله الحسنى ولاسيما عقيدة الإنسان الكامل.

ومن جانب آخر، قمنا بتحليل رؤية بعض الصوفيين ممن ظهروا بعد ابن عربى، وكان آخرهم، طبقاً للتسلسل الأبجدى، «عبد العزيز الدباغ» (عام ١٧١٩) ورؤيته عن الحروف السبعة، وكذلك تفسيراته للكلمات السريانية التى وردت فى كتاب «الإبريز» لأحمد بن مبارك.

لقد اتخذ، فى الواقع، تطور علم الحروف اتجاهين رئيسيين: الاتجاه الأول نتج عن الحركة الحروفية التى نشأت فى إيران فى نهاية القرن الرابع عشر الميلادى، وانتشرت فى الشرق الأوسط رغم الاتهامات والانتقادات العنيفة التى وجهت لها، واستمر انتشارها قرابة قرن من الزمان، وقد كان مؤسس عقيدتها هو الشيخ الملهم «فضل الله الإسترابادى» الذى ولد حوالى عام ١٣٤٠م وقتل عام ١٤٠١م. ونجد فى أعماله الغزيرة، عناصر للرؤية الصوفية التى سبق وقدمها ابن عربى، وتتمثل فى فكرة أن الله هو ما فوق الجوهر وهو غير معروف ولا موصوف ولكنه ينبثق ويختفى مثل «الكنز المستور» كما ورد فى الحديث القدسى.

ويتم هذا الانبثاق بطريقتين: الأولى بالكلمة والثانية بالشكل الكامل، إن هذا يجعلنا نعود مرة أخرى للفكرة التى عرضناها

سابقاً وهى أن الله قد خلق آدم على هيئته وأن هذه الهيئة تتطابق مع مجموع أسماء الله الحسنى. فالإنسان هو إذاً، شكل وجودى وكلمة فى آن واحد، وينطلق الحروفيون فى عقيدتهم من هذه القاعدة، إلا أنهم يغالون إلى أقصى حد فى وصف التطابق بين الشىء والكلمة وبين الإنسان والفعل.

فقد خلق الله العالم إذاً بكلمة منه، كما يؤكد النص القرآنى فى كثير من الآيات. فما نصاف هذه الكلمة؟

بعيداً عن غلو التأملات حول الخطاب الأول أو (المبدأ) الأصلى الخالق، إن ما يعنينا هنا هو أن أول ما كشف الله هو تلك الأسماء التى تتوافق مع الحروف الاثنين والثلاثين للأبجدية العربية المكونة من ٢٨ حرفاً الحق بها أربعة حروف ساكنة خاصة بالأبجدية الفارسية وهى G-Tsh-J-P. والمقصود هنا بالأسماء، أسماء الله الأولى. وهى جذور إذا رأيناها مقطعة لا تعنى أى شىء بالنسبة للإنسان، ولكن تكويناتها أنشأت تجانس الكون. وهذه الأعداد هى (٢٨-٣٢-٩٩). وهى ليست منفصلة عن بعضها البعض، فقد وصل «فضل الله» بينهم. فالحروف الأربعة الخاصة باللغة الفارسية، موجودة ضمنياً فى الحرف التاسع والعشرين من الأبجدية العربية وهو «اللام ألف»، أما حروف الأبجدية الفارسية الـ ٣٢ فهى فى أسماء الله الحسنى الـ ٩٩. وسنتوقف قليلاً عند العددين ٩٩ و ٣٢ لما لهما من أبعاد واسعة نظراً لأنهما يعنيان أن اللغة الفارسية تعد ضمن اللغات المقدسة، كما أنها ستكون أحدى اللغات التى

سيتحدث بها المؤمنون فى الجنة، طبقاً لما ذكره الحروفيون عن الرسول فى قوله «إن لغة أهل الجنة هى العربية والفارسية». وهذه اللغة لم يتحدث بها، بالطبع، القرآن وذلك نظراً لأنها من لغات الآخرة. ففى كل مرحلة من مراحل نمو التصاعد الروحانى البشرى، تنتشر الأسماء الإلهية الأصلية لتتخذ بعداً أوسع وأكبر. ولهذا السبب، استخدم آدم عندما نزل إلى الأرض تسعة حروف، أما إبراهيم فقد استخدم ١٤ حرفاً وهى نصف عدد حروف الأبجدية العربية، وموسى ٢٢ حرفاً وهى الأبجدية العبرية، وعيسى ٢٤ حرفاً وهى عدد حروف الأبجدية اليونانية، ومحمد ٢٨ حرفاً وهى عدد الأبجدية العربية، وأخيراً جاء «فضل الله» من إيران واستخدم الأبجدية الفارسية وعددها ٣٢ حرفاً. فبواسطة العدد ٣٢ بالإضافة للأربع حروف الأخرى ينكشف جزء من الأسرار الباطنية للقرآن.

ومن الجدير بالذكر، أن «فضل الله» لم يدمج حروف اللغة العربية داخل الحروف الفارسية، ولكنه احتفظ بكل منها على حدة، باعتبارها المفتاح الأساسى أو وعاء المعرفة لظهور الله فى الإنسان، إن كل من هذين العددين مكمل لآخر، ولكن دور العدد الفارسى جاء إتمامًا للكشف، وهذا ما يوضح وجود ٢٨ سنة فى فك الأطفال مقابل ٣٢ لدى الكبار.

ويمكن تفسير رؤية العالم بواسطة الحروف، فى منظور «فضل الله»، انطلاقاً من قاعدة أخرى، رأيناها كثيرًا فى أعمال أصحاب عقائد الحركة الصوفية الحروفية الرئيسيين، وهى التطابق بين

الأسماء والأشياء، فهم ينظرون إلى الشىء على أنه ملتصق بالاسم الذى يعبر عنه، ولا يمكنه الانفصال عنه، فالأشياء لا وجود لها دون الأسماء والعالم الخالى من الأسماء، عالم غير متصور، وحتى صمته البسيط لا يمكن إدراكه، إن الحجج والبراهين الحروفية لا يمكن فهمها إذا ما ابتعدنا عن القضية الرئيسية هنا ومحور الجدل، وهى أن الله هو الذى يطلق الأسماء؛ فاللغة الإلهية التى يعتبر القرآن انعكاسًا لها، هى لغة أزلية سرمدية، ولذلك فإن الأشياء التى يشير إليها القرآن تكتسب بالتبعية هذه الصفة. نحن لا نتحدث هنا عن الفلسفة الأسمية التى عالجها قديماً أفلاطون فى حواره «كراتيل» و التى تتعلق بمشكلة علاقة الأشياء بالأسماء. فالحروفيون يغالون إلى أقصى حد فى مسألة الخلق بواسطة الكلمة، وهذا هو المنظور الذى عرض من خلاله «هنرى كوربن» المذهب الحروفى على أنه مذهب أنطولوجى وجودى بمعنى الكلمة، يصبح الوجود فيه هو الكلمة.

وبطريقة أخرى، إذا كانت الأشياء تطابق أسماءها، فهذا لا يعنى أنها مطابقة للأسماء الموجودة فى لغة من اللغات البشرية، ولكن هذا التطابق يأتى من كون أنيتها قد تم تحديدها بواسطة الكلمة الإلهية التى حددت أيضاً تكوينها ومنحتها الحياة. وهذه هى الأسماء الحسنى التى علمها الله لآدم وذُكرت فى القرآن، ودون هذه التسمية الإلهية، قد لا يكون للأشياء وجود. ولكن هذا لا يعنى بالضرورة أن تكون اللغات البشرية شفرة لفك رموز اللغة الإلهية،

ولكن على العكس. فاللغات ولاسيما العربية والفارسية الصدى للغة الإلهية فى العالم، فهى الجواب الذى يصعد من الأرض إلى السماء، وهذا الاعتقاد، أتاح للحروفيين التمادى فى تأملاتهم الحروفية حول الكلمات العربية والفارسية والتى مارسوها بورع وحماس شديد.

إن هذا التكوين السماوى الواضح ينبثق كليةً بواسطة الأنماط الحروفية الـ ٣٢ التى أطلقها الله فى بدء الوجود، ولهذا السبب، فإن أسماء الأشياء لا يمكن أن تكون زائدة أو أن تكون نشأت اعتباطاً كما يقول هذا البيت الشعرى «إن جميع الذرات فى الكون عبارة عن لغات، لكن ليس هناك آذان لسماع الكلمات التى تتولد عن كل ذرة من هذه الذرات».

إن المفهوم التاريخى للعقيدة الحروفية هو الكشف عن هذا التكوين المستتر وغير المرئى للعالم، ويعد التكوين البشرى هو مفتاح هذه اللغة الباطنية الغامضة طبقاً لمفهوم الحروفيين.

والنصوص التى تركها الحروفيون، تركز بإصرار كبير على أن خلق آدم كان نموذجاً يشمل الكون كله، وفى هذه الفكرة يتلاقى الحروفيون مع فكرة شائعة فى الفلسفة الباطنية فى القرون الوسطى تعد قمة ما توصل إليه الفكر الباطنى، وهى العلاقة المتوازية بين التكوين الجسمانى والنفسى للإنسان وتأويلهم الخاص للحروف الأبجدية والأعداد، فقد رأوا أن هناك علاقة نسبية بين جسد آدم و أعداد الحروف والعلامات الفلكية، ونلاحظ تأثر

الأعمال التشكيلية بتأويلهم للوجه البشرى، فقد تم تقسيم الوجه إلى أجزاء يبلغ مجموعها ٢٨ أو ٣٢ جزءًا، فيه ٧ خطوط أمومية مثل الشعر والرموش وأخرى أبوية مثل اللحية، كما ظهرت حسابات مماثلة لليد ولكامل الجسد. ولا يعنينا هنا مضمون هذه التأملات الفكرية البحتة، ولكن ما يهمنا هو التأويل الروحانى الذى يحرك الطاقة والجهد فى النفس، وانطلاقًا من هذا المعنى، يؤدى التأمل لوجه متجانس إلى دخول الجنة، وهذه الرؤية هى التى نتجت عنها الفلسفة الصوفية الجمالية.

إن التأملات حول الحروف تهدف إلى نوع من التطهير الفعّال. وهذا يعنى أن معرفة أسرار الحروف تؤدى إلى معرفة الذات وبالتالى إلى معرفة الله، وإذا كانت القراءة البشرية للقرآن لا تكشف معناه، فهذا لا يرجع إلى الجهل البشرى وذلك لأن الكتاب لم يكتمل بعد وأنه فى حالة الصيرورة.

لقد مر خلق آدم بعدة أطوار، وتعد مطابقة الاسم للمسمى هى وصول آدم إلى مرحلة الكمال، ويتم ذلك على مدار التاريخ. فالحروفيون يهدفون إلى التعبير عن طور جديد من النمو لآدم، وهذا الاعتقاد هو الذى رفضته السلطات السياسية وبسببه تعرض أصحاب هذه الطائفة إلى ألوان من الاضطهاد والتعذيب العنيف.

وفى الواقع، فإن فهم الحروفيين للمعنى الباطنى للقرآن قد أدى إلى ظهور ما يسمى بالدين الجديد.

وبعيداً عن الفكر الحروفى، فقد ظهر بعد جديد هامشى لعلم الحروف وهو تطبيقاته فى ممارسات السحر والتنجيم. فانطلاقًا من فكرة قدرة الحروف فى القرآن على كشف كثير من المعرفة المستترة ولاسيما الأحداث المستقبلية، نشأت تأملات ذات طابع أخروى أو سياسى منذ القرون الأولى للتاريخ الإسلامى.

إن اليقين بأن آيات القرآن يمكنها إمداد الإنسان بالقوة والفضائل وهى بالطبع معانى أسماء الله الحسنى، قد وجد طريقًا لتطبيقه على صورة السحر الحروفى وعلم الطلاسم، وقد ظهرت أعمال تطبيقية لهذا العلم ومن بينها كتاب «شمس المعارف ولطائف العوارف» للبونى فى القرن الثالث عشر، ويجب أن ننوه بأن هذا النوع من السحر الأبيض النافع على الرغم من غموضه، لم يبتعد كثيرًا عن الصوفية بمعناها الحقيقى، والدليل على ذلك التأملات حول الاسم الأعظم الذى يكسب المطلع على سره قوه سحرية لا حدود لها لأنه بواسطة هذا الاسم يتمكن من وضع وعيه وقراراته فى الامتداد الحقيقى للإرادة الإلهية.

هوامش وتعليقات

١- نقلاً عن مقال بعنوان «السيمياء» لـ D.B MacDonald et T. Fahd نشـر فى الموسوعة الإسلامية الطبعة الثانية والذى يشير إلى السحر الأبيض بنفس المسمى.

٢- راجع كتاب Frithjof Schuon بعنوان «كيف تفهم الإسلام»

"Comprendre l'Islam" Paris, Seuil, 1976 p.56

٣- راجع مـقـالات P. Kraus بعنوان «جابر بن حيان - إسهامات فى تاريخ الأفكار العلميـة فى الإسلام - جابر والعلوم اليونانية»، القاهرة ١٩٤٢، أعيدت طباعتها عام ١٩٨٦ فى باريس دار نشر Les Belles Lettres.

Jâbir ibn Hayypân - Contribution à l'"bistoire des idées scientifiques dans l'Islam - Jâbir et la science grecque, Le Caire, 1942, rééd. Paris, Les Belles Letters, 1986.

راجع أيضاً كتاب بيير لورى بعنوان «الكيمياء والصوفية فى الإسلام» عام ١٩٨٩، و الذى أعيد طباعته عام ٢٠٠٣.

P. Lory, Alcbimie et mystique en terre d'Islam, 1989, rééd. Gallimard, Folio/essais, 2003

٤- راجع كتاب رجب البرصي بعنوان «أنوار الشرق» ترجمة وتعليق هنري كوربن عام ١٩٩٦.

٥- شمس المعارف، القاهرة ص٨٧

٦- ١٦ عددها (١) + اللام وعددها (٣٠) + الفاء وعددها (٨٠) والمجموع (١١١) (المترجم)

٧- انظر كتاب رجب البرصي ص٤٣

٨- راجع كتاب «الفتوحات المكية» ترجمة و تعليق Denis Gril الذي يرجع إليه الفضل في حصولنا على كتاب التستري بعنوان «بحث عن الحروف» وكتاب ابن مسرة بعنوان «خصائص الحروف».

٩- لقد تم اختيار هذه الأمثلة من جانب المترجم نظراً لعدم وضوح الأمثلة الفرنسية للقارئ العربي.

١٠- لمزيد من التفاصيل راجع كتاب ابن سينا بعنوان «رسائل في الحكمة والطبيعيات للشيخ الرئيس ابن سينا».



شكل زخرفى لجسد الإنسان خاص بالطائفة البكتاشية الباطنية
يظهر فيه اسم محمد فى الأذرع والساقين
وعلى الأكتاف اسم الحسن والحسين وفى الصدر كلمة هو على (إمام الشيعة)

الفصل الثالث

الشيعة وعلم الحروف

حتى نرى صوت الله

تحت عنوان «الصوفية فى القرن الحادى والعشرين» صدر حديثاً مقال لـ Michel Chodkiewicz ذكر فى خاتمته أنه يستشعر أن لبنة التيار الروحانى الإسلامى التى لا تزال حية، قد تشهد، بشكل أو بآخر، تطورًا جديدًا للحركة «الملامتية». غير أن هذا التطور لن يكون بالضرورة داخل الجماعات المعروفة، بل قد تشهده مجتمعات أخرى صغيرة تتسم بالورع والسرِّية فى ممارسة العقيدة. وأضاف قائلاً «إن ظهور الطرق بمعناها المعروف لم يكن أول ظهور للصوفية، فهناك ألوان من الصوفية ظهرت خارج نطاق الطرق (...) والطرق كما نعرفها هى إحدى المظاهر التاريخية للحركة الصوفية ولكنها ليست مظهرها الوحيد، فلقد مرقت بعض الجماعات الصوفية السرِّية التى لم تحظ بأى اعتراف رسمى أو غير رسمى، لأنها، فى الواقع، لم تكن تسعى للحصول عليه، كما أنها لم تكن محاطة بهالة من الطقوس المعقدة ولم تكن تهدف للفوز

بتأييد الأنظمة السياسية القائمة أو لتأكيد وجودها الاجتماعى بامتلاك الأراضى أو نحو ذلك. إن ظهور مثل تلك الجماعات يبدو لنا كدلالة على أن التصوف المتشدد يبحث لنفسه عن أشكال جديدة للوجود تختلف عن تلك التى اعتدنا عليها».

إن ممارسة هذه الجماعات لعقائدها سرًا، كما أوضح Michel Chodkiewicz يتناقض مع انتشار النظرة العلمية والاجتماعية التى تطارد الإنسان فى كل المجالات، فالطب يفحص أعضاءه والكيمياء الحيوية تحلل جزيئاته وأصله الجينى، وعلم النفس والتحليل النفسى يدرسان انفعالاته وغرائزه، وعلم الاجتماع ووسائل الإعلام تحلل سلوكياته الاجتماعية. حتى فى السماء، هناك الأقمار الصناعية التى تراقب دون كلل، حياته على الأرض.

فأين هو إذًا الملجأ والملاذ السرى الذى يستطيع فيه الفرد أن يختبئ لاكتشاف ذاته باعتبار أنه موضع فريد للعناية الإلهية؟

إن الحركة الصوفية الإسلامية التى تكونت على مر العصور من تبادل وتلاقى للخبرات الباطنية، كانت تهدف إلى نقل رسائل متعددة.

سنتوقف هنا، عند واحدة فقط من هذه الرسائل وهى: الجديد الذى حققه التيار الروحانى الإسلامى فى إعادة توظيف الجسد البشرى، هذا الجسد الذى طالما خضع للدراسة والتقييم، بحيث بدا أحيانًا مفلسًا.

وفيما يتعلق بعلم الحروف، فقد ساهم كثير من الكُتَّاب وأصحاب الرؤى بتأملاتهم، فى إضفاء رؤية جديدة لجسد الإنسان ولشكله ووظيفته، ولسوف نتناول لاحقاً تصورات ابن عربى فى كتابه الموسوعى «الفتوحات المكية» الذى يعد سبقاً من حيث تأملاته فى هذا الموضوع، ولكننا سنبدأ أولاً بأحد الملهمين الذى لم يحظ بشهرة كبيرة لأسباب سنعرفها على الفور، وهو «المغيرة بن سعد» الذى تم إعدامه عام ٧٣٧هـ.

لقد كان المغيرة بن سعد أحد الغنوصيين والعارفين من أصحاب الرؤى ذوى الميول الشيعية المتطرفة الذين ظهروا فى أواخر العصر الأموى، ولقد كون حوله حركه باطنية أثارت آراؤها عن البعث والحساب فى الآخرة غضب الولاة فى ذلك العصر.

ولا نعرف، فى حقيقة الأمر، بيانات عن حياته أو عن شخصيته، وذلك لأن المعلومات التى وردت إلينا كان مصدرها الأعمال الأدبية لحركة الهرطقة الاثنى عشرية السنية والشيعية، التى لم تهتم بالمغيرة بن سعد سوى من زاوية العقيدة؛ لأن هدفها لم يكن التأريخ فى حد ذاته، بل كانت تسعى فقط وقبل كل شيء، إلى دحض أفكار الشيعة المتطرفة ممن يطلقون عليهم بازدراء اسم «الغلاة» (١).

إن كل ما وصل إلينا عن «المغيرة بن سعد» هو أنه كان يعيش بالكوفة وكان كفيفاً ولكنه لم يكن على قدر كبير من الثقافة إلا أنه كان على دراية واسعة بالقرآن. وقد أكد مؤرخو حركة الهرطقة أنه كان يعد نفسه نبيًا أو إمامًا وتمهيداً لظهور المهدى المنتظر، وقد كان

يمارس السحر والتنجيم ويدعى العلم باسم الله الأعظم الذى يساعده على الإتيان بالمعجزات مثل إحياء الموتى.

أما المبادئ الأساسية لعقيدته فقد تمثلت فى أسطورة تشبه إلى حد كبير عقيدة الفنوصيين أو أصحاب المذهب المانوى الذين انتشروا فى بلاد الرافدين فى ذلك العصر، فلقد ادعى المغيرة رؤية الله متمثلاً فى شكل إنسان من النور، جسده مكون من الحروف الأبجدية، الساق كانت حرف الألف والعين حرف الباء.. الخ. وعندما قرر الله خلق الكون، تلفظ بالاسم الأعظم الذى انطلق ليستقر على راسه كالتاج، ثم أخذ يكتب بإصبعه على كف يده أعمال البشر. وبينما كان يكتب تمرد المذنبين فى المستقبل، غضب ونضح عرقاً. ومن عرقه تكونت البحار، أحدها مظلم ومالح والآخر عذب ومضىء. وثم لاحظ ظله على الماء، فأراد أن يمسك به ولكنه فر منه، وعندئذ انتزع عين ظله وخلق منها الشمس وقام بمحو الباقى قائلاً: «لا يجب أن يكون هناك خالق بجوارى». وبعد ذلك خلق البشر، فكان الأخيار العادلون من المياه العذبة، أما الأشرار المذنبون فكانوا من البحر المالح، وكان أول الخلق هو النبى محمد الذى خلق كظل على هيئة الله.

إن هذه الرؤية للعالم ولله تبعد تمامًا عن العقيدة الإسلامية التى ترتكز على التسامى المطلق لله وربوبيته المجردة المطلقة، ولهذا فقد تم القبض على المغيرة عام ٧٣٧م وأصدر الحاكم الأموى أمراً بإعدامه وصلبه.

وعلى الرغم من عنف رد الفعل للسلطات الإسلامية، إلا إن عقيدة المغيرة بن سعد جديرة بالتحليل، لما لها من تأثير فى الأوساط الشيعية فى القرن الثامن الميلادى الثانى من الهجرة. ففى الواقع، كانت هذه العقيدة من أوائل المحاولات فى الإسلام التى طرحت قضية شكل الله. فإذا كان الله يظهر للبشر بواسطة كتاب سماوى كامل، وإذا كان يبعث على الأرض برسل تتسم بالكمال والمثالية وهم الأنبياء والأئمة، فلابد من وجود صلة أو علاقة عميقة بين الكتاب وهؤلاء الرسل، أى نقطة تلاقى بين حقيقة أصل الكتاب وحقيقة وأصل الإنسان. إن هذه النقطة هى أصلهما المشترك.

إن هذا الأصل الكتابى البشرى، هو ما حاول المغيرة وصفه فى هذه الرؤية الأسطورية الغريبة الثرية بالرموز لبداية الكون، ولكن لنتوقف هنا عند ثلاث علاقات منطقية استطعنا استخلاصها بصورة مباشرة عن هذه الرؤية:

أولا: إن الكلمة والفعل لم يكونا، فى هذه الرؤية، انبثاقاً إلهيًا. فالكلمة هنا هى جسد الله، ومما لا شك فيه، أنه من منظور الفكر الغنوصى، هناك فرق بين الله الخفى وغير المعروف وبين ظهوره فى شكل مجسم كما عبرت عنه الأسطورة، ولأن المغيرة يعتقد فى التناسخ، فإن هذا الإله «الثانى» هو الذى رآه المغيرة فى رؤيته فى هيئة بشرية ضوئية.

أما الكلمة، فإنها فى هذه العقيدة، تتخذ بعدًا ميتافيزيقيًا هامًا. فالله، قد ظهر فى شكل حروف، وقد تلفظ كلمة واسماً هما أساسا قوته الخلاقة، وقد كتب على يده، المكونة أيضاً من الحروف، مصير كل البشر، وهذا ما يفسر القول بأن الحقيقة الخلاقة هى فى جوهرها كلمة. فالمادة والطاقة وتكوين العوالم السماوية والأرضية ما هى إلا مجموعات من الحروف المكتوبة والمنطوقة، وهنا تظهر مكانة القرآن باعتباره انعكاسًا للحكمة الإلهية وايضاً الوجود المادى لله على الأرض.

ثانياً: إن وظيفة ودور الله فى هذه الرؤية معكوس. فبما أن الوجود نفسه مكون من حروف، فإنه يتطابق تماماً مع الكلمات التى كونته. فاللغة، إذًا، ليست هى التى تحدد أسماء الأشياء، ولكن، بطريقة ميتافيزيقية، إن الأشياء هى التى تشير إلى الكلمات السماوية التى أنشأتها لأنها الجذور الأنطولوجية الوجودية لكل الكائنات.

ثالثاً: إن التكوين الحروفى الذى يظهر فى هذه الرؤية، يتخذ شكلاً خاصاً وهو اسم الله الأعظم، اى الكلمة التى أطلقت القوة الخلاقة. بيد أن الطبيعة المحددة لهذه الكلمة ووظيفتها، ليست واضحة تماماً فى النصوص القليلة التى وردت إلينا. ولكننا نستطيع أن نفترض أنها مكونة من ١٧ حرفًا(٢). وهذا يجعلنا نعود مرة أخرى إلى تأملات الباطنية من المسلمين حول الرقم (٧).

إن البحث عن الاسم الأعظم يلعب دورًا مهمًا وثابتًا سواء فى الكشف الصوفى الروحانى أو فى ممارسات السحر والشعوذة.

لقد أوضح علماء الدين فى التيارات الصوفية التى ظهرت بعد المغيرة، نضجاً فى التحليل الدقيق للقرآن. فلقد لاحظ أصحاب العقيدة الشيعية وجود علاقة متوازية بين الإمام والقرآن؛ فالإمام، من منظورهم، هو قرآن متكلم، أما القرآن فهو إمام صامت، وكل منهما يكمل الآخر وينبثق من حقيقة وحكمة فريدة تهدف إلى نشر السعادة والرحمة على البشرية كلها.

أما أتباع التيار السنى، فقد تزعزعت مكانتهم خلال القرن التاسع الميلادى الثالث الهجرى، بسبب الجدل الذى أثير بينهم وبين المعتزلة حول طبيعة القرآن وهل هو مخلوق أم لا.

فالمعتزلة يدعمون فكرة خلق القرآن فى لحظة نزوله وحياً على محمد، أما السُنَّة ولاسيما أتباع ابن حنبل، فيؤكدون أن النص المقدس غير مخلوق، والأمر المثير للانتباه، أن غالبية المسلمين يتبعون التيار الثانى.

أما عقيدة المغيرة بن سعد فقد تم دحضها وازدراؤها بشدة فى ذلك العصر، بيد أنه بعد ذلك بقرن ونصف القرن، ظهرت بعض المذاهب التى تأثرت بعقيدته الحدسية.

إن التأمل حول دور التجلى الإلهى فى الكتاب المقدس، ليس مقصوراً على هذه التأملات الشيعية المتطرفة التى ظهرت فى

العصر الأموى، ولكنها انتشرت على مر العصور، ولن نستطيع، فى هذا المجال، أن نتوقف عن دور كل الصوفيين الذين تناولوا هذا الموضوع، ولكننا سنعرض فى الفصل السادس من الكتاب، تحليل ابن عربى الكامل لهذا الموضوع ومدرسته الروحانية.

فلسفة اللغة عند إخوان الصفاء

تشكل رسائل إخوان الصفاء والبالغ عددها ٥٢ رسالة، مجموعة فلسفية موسوعية ذات ميول شيعية، يدعى مؤلفوها، الذين لم يذكروا أسماءهم، اشتراكهم فى جماعة أخوية سرية ذات طابع عقائدى. ولقد انتهت رسائلهم، التى امتدت لأجيال كثيرة، فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى، وهناك كثير من الافتراضات التى حاولت تحديد شخصية هؤلاء الكُتَّاب ومعرفة أهدافهم العلمية والسياسية.

فلقد رأى كثير من المتخصصين مثل لويس ماسينيون عام ١٩٢٢، والحمدانى عام ١٩٣٥، و S.M. Sten عام ١٩٦٤ وحديثاً Y.Marquet ، أثرًا فى كتاباتهم للتيار الشيعى المتطرف وخاصة المذهب الإسماعيلى.

وعلى الرغم من رفض بعض العلماء لهذه الافتراضات ومن بينهم (A.Awa عام ١٩٤٨ وH.Fekitt عام ١٩٧٢) إلا أن هذا الفرض يبدو لنا الأوقع ، ولكننا سنضيف عليه نبذة تاريخية عن نشأة المذهب الإسماعيلى.

عند ظهور التيار الإسماعيلى فى القرن العاشر الميلادى، لم تكن بداياته، فى الواقع، حركة موحدة ومتجانسة على شكل)كومينترن) فى خدمة الدولة الفاطمية بشمال إفريقيا. فلقد تفرعت منه وسارت على خطاه، تيارات متعددة، تجعلنا أميل إلى تحديد مكانة أخوان الصفاء على أنها جماعة تابعة بشكل عام للمذهب الإسماعيلى، ولكنها تمثل تيارات، على عكس القرامطة، ذات صبغة أرستقراطية.

ولم يكن هدف أخوان الصفاء محاولة إظهار الولاء أو التقرب للفاطميين، بل كانوا يسعون، فى المقام الأول، إلى جذب مجموعة من المفكرين الشيعة وأيضاً السنة، للانضمام للجماعة والالتفاف حول عقيدة يستطيع، غالبية المؤمنين من الطبقة المثقفة، قبولها. فالطابع الانتقائى التوحدى هو الذى يشكل السمة الرئيسية، بل والهدف الأساسى لفكر أخوان الصفاء، وإذا ما القينا نظرة متفحصة على رسائلهم، سنجد أن القضايا التى طرحوها لا تختلف كثيراً عن القضايا التى تناولتها الفلسفة اليونانية؛ فهم لم يبتكروا فكراً جديداً، ولكنهم أرادوا أن ينقلوا هذه الفلسفة ويقتبسوا منها فى محاولة لتطبيع الفكر اليونانى فى أرض الإسلام.

وتكمن الأهمية الرئيسية لرسائل أخوان الصفاء فى محاولتهم الجمع بين الوحى القرآنى والتعاليم الإمامية من جهة والفلسفة الأفلاطونية المحدثة من جهة أخرى.

ونطمح فى هذه الدراسة أن نضع أيدينا على عناصر القوة فى عقيدة هذه الجماعة؛ لذلك وقع اختيارنا على فلسفة اللغة لتكون الزاوية الرئيسية لدراسة عقيدتهم، لأن هذه القضية ستتيح الفرصة لتحديد الهدف الموحد الجامع لفكر هذه الجماعة.

إن فلسفة اللغة لدى أخوان الصفاء تحتوى، فى الواقع، على العديد من الإشكاليات: الإشكالية الأولى ذات طابع فلسفى وهى معنى الكلمات والجمل، أما الثانية فهى دينية وتتعلق بشكل اللغة الناقلة للكلمة الإلهية، هذا بالإضافة لقضايا باطنية مهمة مثل العلاقات بين التكوين اللغوى والنظام الكونى وهى قضية يقدمها أخوان الصفاء كجوهر لعقيدتهم.

ولكى نوضح ما بهذه المفاهيم والعقائد من تعقيدات وصعوبات، سنتوقف قليلاً لتحليل التصنيف الذى افترضه أخوان الصفاء لعلوم المعرفة فى رسالتهم السابعة و التى قسموا فيها المعرفة إلى ثلاثة أنواع:

١- العلوم الرياضية التى تخدم الحياة الاجتماعية والاقتصادية وتعد تمهيداً لعلوم أكثر سموًا ورقيًا.

٢- العلوم الدينية أو الشريعة وهى تشمل القوانين التى تنظم العلاقات العامة فى الإسلام.

٣- العلوم الفلسفية وتضم أهم أجزاء التراث الفلسفى لأرسطو داخل إطار من المعرفة الباطنية وعلم الإلهيات.

إن هذا التقسيم لألوان المعرفة يحتوى على كثير من التناقضات وعدم التوافق بينه وبين مواضع أخرى فى كثير من الرسائل، ولكن ما يعنينا فى هذا التقسيم أنه يتناول قضية اللغة بثلاثة مستويات مختلفة:

- المستوى الأول هو اللغة العامة والتى تستخدم لأهداف نافعة مثل النحو و الأدب.
- المستوى الثانى يتعلق بفهم النصوص الدينية مثل الشروح والتفسيرات القرآنية والنصوص القانونية؛ ففهم هذه النصوص هو نوع من المعرفة النافعة التى تهدف لاكتساب حسنات من أجل الفوز بالنعيم فى الآخرة.
- أما المستوى الثالث فهى اللغة الفلسفية التى تعد طريقاً للحكمة. وهذه اللغة لا مغزى لها سوى المعرفة من أجل المعرفة حتى يصير الإنسان فى النهاية صورة مطابقة للحكمة الإلهية.

ولم يترك، فى الواقع، إخوان الصفاء، تفسيرات أو تعليقات فى الرسائل إلا عن الفئة اللغوية الثالثة. أما المستوى الأول فلقد تم تناوله بشكل عرضى فى إطار اللغة الشعرية التى تنشر، بفضل إيقاعاتها الموسيقية، نغمات تبعثها نجوم السماء على الأرض فيعم التوافق والتجانس بين الأشياء مما يجعلها لغة تتدرج تحت علم الإلهيات.

أما المستوى الثانى فلقد تم تجاهله تماماً، فقد توقفوا فقط عند دور اللغة فى المجال الفلسفى والحكمة الذى تم تناوله فى موضعين

مختلفين: من جهة، تناول أخوان الصفاء قضية اللغة فى سلسلة من النصوص التى تستعرض بوضوح فلسفة أرسطو ولاسيما الرسالة العاشرة والرابعة عشرة وهما تلخيص لكل من مقدمة «بورفيرس» بعنوان Isagogé وكتاب «الفئات» و «التفسير» و «التحليلات» الأولى والثانية لأرسطو. بيد أن أخوان الصفاء لم يقدموا فكرًا جديدًا فى هاتين الرسالتين سوى إلحاق كلمة «شخص» وهو اللفظ العام لكلمة فرد، فى مقدمة بورفيرس، إلى جانب النوع والصنف والاختلاف والخاص والعارض، ولكنهم لم يبينوا بشكل واضح الصلة بين مفهومهم للغة والتصورات الأفلاطونية والباطنية التى يعرضونها فى رسائل أخرى، كما أننا نجد فى هاتين الرسالتين، انعكاساً للخلط الذى ظهر فى الفلسفة التقليدية بسبب وهم الاندماج بين الفلسفة الأفلاطونية المحدثة والفلسفة المشائية لأرسطو والاعتقاد بأنهما يسيران فى خط فلسفى موحد.

ويتوقف أخوان الصفاء كثيرًا عند أنطولوجية ووجودية اللغة ولاسيما قضية أصل اللغة الميتافيزيقى؛ فلقد تناولوا هذه القضية من منظور الفلسفة الأفلاطونية المحدثة التى تعرضت للوصف والتحليل فى كثير من المواضع فى الرسائل: فمن الله البارى ينبثق العقل أو المبدأ الذى يولد بدوره الروح الكونية. وفى هذه الروح يظهر جوهر جميع الكائنات، ثم يحدث تدرج للانبثاق فتظهر المادة الأولى والطبيعة وهيكل العالم والأفلاك السماوية وأفلاك

العناصر. أما أصل اللغة فقد تكون داخل الروح الكونية، ثم أخذ فى الانتشار والاختلاف فى المستويات المختلفة للوجود، والملائكة هم بصفة عامة كائنات متكلمة ولغتهم هى دائمًا وأبدًا الحمد والشكر الخالص لخالقهم الواجد.

وتعتبر لغة الملائكة نموذجاً للغة البشرية. أما عن الإنسان، فإن روحه الفردية هى نتاج ذاتى ولكن كامل للروح الكونية، إن هذه الروح الكونية تحتوى بالقوة على علم الكائنات الممكنة بالإضافة لعلم اللغة الذى يتيح تسمية هذه الكائنات، وعندما يتعلم الإنسان مبادئ هذه اللغة، يستطيع أن ينقل هذا العلم من مرحلة القوة إلى الفعل، إن فن وصناعة اللغة هى الملكة التى تساعد الإنسان، أكثر من أى فن آخر، على الاقتراب من العوالم السماوية، لأنه يعبر بشكل أفضل عن عملية انبثاق الكائنات.

كيف حدث، إذًا، وبشكل ملموس، التحول من اللغة السماوية إلى اللغات المختلفة التى يتحدث بها أهل الأرض؟

لقد خصص أخوان الصفاء لهذه القضية أجزاء كثيرة من الرسالة رقم ٣١ بعنوان «أسباب تعدد اللغات». فقد بينوا، دون الخوض فى تيه من الشروح الدقيقة والمفصلة، أن الطبيعة الأرضية كانت، قبل ظهور الإنسان، تتحدث لغة نابعة من حركة الهواء وأصوات الطبيعة المختلفة، وكانت أصوات الحيوانات والبشر امتداداً طبيعياً لهذه اللغة الأصلية، وكان آدم فى الأصل يتكلم اللغة

السريانية أو اللغة النبطية، وإذا توقفنا قليلاً عند طبيعة هذه اللغة، نجد أنه لا يجب الخلط بينها وبين اللغة الآرامية الغربية التى يتحدث بها شعوب منطقة الشرق الأوسط، ولكنها نمط بشرى للغة الملائكة، كل حرف فيها يحمل معنى فى ذاته وينشر معلومات تدركها العوالم السماوية.

ويوضح أخوان الصفاء، فى هذا الصدد، أن تكوين اللغات الأرضية المختلفة قد ظهر بعد زمن طويل شمل تطورات كثيرة. فعندما اتسعت المجتمعات البشرية وتعددت وازدادت تعقيدًا، حدث تمدد تدريجى للكلمات التى تتكون من الحروف السريانية، فالموقع النجمى والجغرافى لكل شعب والتباعد بين المجتمعات المختلفة قد نتج عنه تعدد للغات التى أدت إلى عدم فهم الشعوب لبعضها ومن هنا نشأت الاختلافات العقائدية والصراعات.

ومن هذا المنظور، تتفوق اللغة العربية على اللغات الأخرى، ليس لأنها لغة ملائكية، ولكن لأنها أكثر اللغات كمالاً وتجانسًا، فإذا كان الإنسان هو مجموع كمال الكون أكثر من الملائكة، فإن اللغة العربية تتركز بها الصفات اللغوية لجميع لغات الكون ولكن فى قالب موحد، ولهذا يقوم القرآن بدور الإرشاد للعامة والبسطاء، كما أنه يستطيع نقل المعانى السامية للصفوة المثقفة من المفكرين الروحانيين، فاللغة العربية بصفة عامة، وفى القرآن بصفة خاصة، هى اللغة الحاملة للأسرار العليا للفلسفة.

لقد بلغت تصورات أخوان الصفاء عن اللغة ذروتها فى علم رمزية الحروف الذى يعج بالتبادلات المنطقية بين الحروف والأعداد و الكون. إلا أنهم قدموا شروحًا أخرى، ولكنها للأسف موجزة بشكل عام، عن التوافق العددى والهندسى فى الخط العربى وفى الشعر وفى أسرار الحروف المقطعة فى القرآن وفى علم الرياضيات والموسيقى، ويظهر المفتاح العددى لكل هذه العلوم من النجوم و المعطيات الفلكية التى تخلق نوعاً من التناغم بين مجموع هذه الأنظمة.

بيد أن الشروح التى قدمها أخوان الصفاء تعد شروحًا عامة تخلو من العمق التحليلى. فلقد أرادوا الابتعاد، طبقاً لمزاعمهم، عن فضول الخوض فى كشف الأسرار الباطنية.

لقد نجح أخوان الصفاء، بواسطة الفلسفة الأفلاطونية المحدثة من جهة والفلسفة الفيثاغورثية الحديثة من جهة أخرى، فى دمج تصوراتهم حول اللغة فى إطار مجمل الفلسفة، وذلك فى قالب متجانس يستطيع أن يناقش المعطيات والقضايا المطروحة. ويكتسب الفيلسوف، من خلال هذا القالب، بسبب تشابه مع الأنبياء والأئمة، قدرة فى مجالات العلوم الإلهية العليا السامية. بيد أن الرغبة فى الوصول إلى حلول وسطية والتوفيق بين جميع الآراء، كما فى جميع أشكال الفكر التوفيقى، من شأنه تقييد الفكر الذاتى المستقل وترك كثير من القضايا عالقة دون حلول.

فلسفة العدد عند «إخوان الصفاء»

لقد رأينا، مدى حرص إخوان الصفاء على تحديد الدور الكبير للغة في عرضهم الفلسفي للرسائل. بيد أن طموحهم قد تعدى، فيما يبدو، هذا الهدف. فهم كانوا يسعون لتوحيد جميع ألوان المعرفة. فاجتهاداتهم لم تكن تهدف إلى دمج العقيدة الإسلامية والفلسفية اليونانية في كيان واحد فحسب، بل إلى إظهار الوحدة والتجانس الجوهري لكل ألوان المعرفة البشرية، بدءًا من العلوم الحسابية إلى قواعد النحو مرورًا بالموسيقى وعلوم السحر.

ومن هذا المنظور، تصبح وظيفة التأملات حول الأعداد محورية في فلسفتهم نظرًا لأن الثوابت العددية هي الوسيلة المفضلة للتعبير عن التناغم الكوني الذي يفترضه أخوان الصفاء مسبقًا.

والحق يقال، إن العدد يشكل، لأخوان الصفاء، الركيزة الأولى لكل حقيقة. فإن العقائد الدينية أو الفلسفية الرئيسية، طبقاً لرؤيتهم، تختلف وقد تضل أيضاً بسبب سوء تقديرها لدور الأعداد الأولى في تكوين الوجود(٣).

وسوف نتناول مفهوم إخوان الصفاء عن العدد من زاويتين:

١- الأولى لعرض التصورات والأشكال العددية التي قدمتها الرسائل مع تحليل لدور كل منها على حدى، وقد بدأنا بالطبع بعلم حساب الأعداد والهندسة كما يدعو إخوان الصفاء في رسائلهم،

وذلك بوضع الرسائل التى تتناول القواعد العددية والهندسية على رأس «موسوعتهم» الفلسفية، باعتبار أنها أساس كل المعرفة سواء كانت معرفة أرضية أو ميتافيزيقية. ثم اتبعنا ذلك بدراسة الموسيقى (الجزء الأول الفصل الخامس) وهى ضمن العلوم التى تلعب فيها الفلسفة العددية دورًا حاسمًا. إن التناسب بين الإيقاعات الموسيقية هى، كما يحب إخوان الصفاء أن يؤكدوا دائماً، النماذج الأكثر كمالاً للنسب الإلهية التى نحن بصدد دراستها فى هذا العمل. فهذه النسب تؤثر على الروح البشرية بشكل فورى ومباشر أى كانت درجة العلم والنضج والسن للمستمع للموسيقى لأنها تنقل إليه أكثر الحقائق السماوية علواً وتوقظ فيه الرغبة فى استرجاع وطنه الروحانى.

إن التحليلات الموسعة التى قدمها إخوان الصفاء فى رسالتهم عن الموسيقى، تؤكد أهمية الصلة بين الأصوات الثالث والرابع والخامس والثامن فى السلم الموسيقى، التى نجد لها انعكاسًا ومردودًا فى جميع مجالات المعرفة الأخرى، وفى هذا الصدد، يعد التوازى الذى يراه إخوان الصفاء فى النسب بين الأفلاك السماوية والأصوات الموسيقية من النقاط التى تميز هذه الفلسفة[٤].

إن هذه التأملات حول دور الموسيقى، تعتبر فى الحقيقة ذات صلة وثيقة بتأملاتهم حول اللغة والتى سبق أن أوضحناها عاليًا، ويتضح ذلك بشكل كبير فى درا هم لعلم العروض فى الشعر العربى حيث ترتبط وحد التفاعيل ى يستخدمها الشعراء العرب

بالإيقاعات الموسيقية التى تتكون مثلها من تركيبات مختلفة ترجع إلى أصل ثنائى يتكون من الحركة والسكون[٥].

وبالإضافة إلى ذلك، يؤكد إخوان الصفاء فى أكثر من موضع على التناسب الفعَّال الموجود فى الخط العربى والذى تنتج عنه أيضاً الأصوات الموسيقية الأربعة الأساسية التى سبق أن أشرنا إليها[٦] بيد أنهم لم يتمادوا فى تأملاتهم حول الوحى القرآنى أكثر الكلمات قدسية، فقد اقتصرت تأملاتهم على بعض الفقرات التى قاموا فيها بالتنويه على أهمية الحروف النورانية الأربعة عشر التى تفتتح بعض السور فى القرآن والمعانى السامية التى توحى بها وعلاقة هذه الإيحاءات بتكوين الجسد البشرى أو الكون السماوى الكلى[٧].

وفضلاً عن ذلك، فقد أولى إخوان الصفاء اهتماماً بعلم التنجيم وقدموا له شرحًا تفصيليًا موسعًا فى رسائلهم. فأصبحت العلاقات بين الكوكب ورموز الأبراج والعلامات السماوية الأخرى، تعبيراً عن الأحداث المستقبلية الأرضية، و تظهر أيضاً النسب التى نتجت عن الحسابات الفلكية فى تأملات إخوان الصفاء عن الطب والسحر. وفى هذا المجال لم تقدم الرسائل أى جديد، فهى تسير على خطى المعطيات الفلكية المعروفة فى ذلك العصر، بيد أنه من الملاحظ ظهور فكر باطنى فيما يتعلق بالصلة بين النجوم والملائكة حيث تشكل الصلة العددية التعبير الأكيد عن الطبيعة الخاصة لهذه الأرواح السماوية.

ومن جانب آخر، يلاحظ إخوان الصفاء، وبوضوح، وجود ثوابت حسابية فى وصفهم لعلم الجغرافيا (الجزء الأول الفصل الرابع) حيث يسعون لإيجاد علاقات تبادلية بين توافق سير الكواكب والنجوم والمعطيات التضاريسية والديموجرافية، ولكن مما يدعو إلى الأسف أن الطبعات التى وردت إلينا من هذه الرسائل لا يمكن الوثوق بها من أجل إدراك هذه العلاقات، بسبب كثرة ما بها من تناقضات فى المعطيات العددية، وبالإضافة إلى ذلك، فقد وجد إخوان الصفاء فى العلوم الطبيعية مادة لتطبيق هذا التقارب العددى ولاسيما على الأجسام الحيوانية وبصفة خاصة على الجسم البشرى(٨).

٢- أما الزاوية الثانية فتتمثل فى دراسة عرْضية للمعطيات التى تم تجميعها حول الأعداد وذلك بهدف تلخيص نظرى لعقيدة إخوان الصفاء بسبب كثرة محاولاتهم لتطبيق نوع من علم الجبر الكونى على قوانين الطبيعة، أو افتراض وجود «تكوين مطلق» يضم مختلف مجالات الوجود الملموس والمتصور.

ويجب أن ندرك أن إخوان الصفاء قد حرصوا على تطبيق العديد من الأسس الخاصة بعلم الأعداد فى مجال الموسيقى وعلم الفلك والنحو، تتطابق طبقاً للفرض، دون أن تكون بالضرورة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا فيما بينها. بيد أننا لاحظنا وجود أسس عامة تشترك فيها جميع الرسائل، مما يؤكد وحدة الخطاب الفلسفى فيها. وهذه الأسس هى:

ـ فكرة وجود وحدة بين كل الأشياء فى الكون تظهر دائمًا فى الأشياء المركبة والمتعددة مثل الجزر أو الأصل الثابت فى تفريعاته[٩] والمبدأ الواحد هو حقيقة جميع الأعداد، تماماً مثل الخالق الذى هو الحقيقة المتسامية العليا لكل موجود.

ترجع هذه الفكرة، فى الواقع، إلى فلسفة أفلاطون اليونانية التى تفترض وجود وجهين للوحدة الإلهية، الوجه الأول هو الوحدة المطلقة أما الآخر فهو الوجه العددى للعقل الكونى الأول.

ـ إن فلسفة الأضداد هذه التى تفترض وجوباً وجود ازدواجية بداخل الكون كله، تمتد إلى الوحدة الإلهية ذاتها، لتسمح بإرساء علم عددى ثنائى يكون فيه الرقم (٢) هو أول الأعداد و (٣) هو العدد الثانى، ويتخلل الإيقاع الناتج من هذا التصاعد الكونى، جميع الأنظمة الكونية بما فيها الموسيقى واللغة البشرية.

ـ لقد اهتم إخوان الصفاء كذلك بالرباعيات، فكانت موضوعاً لتأملات عديدة، لم تقتصر، كما كنا نتوقع، على العلوم الطبيعية حيث تتداخل العناصر الأربعة للطبيعة (الهواء ـ النار ـ التراب ـ السماء) لأن الحركة السماوية الديناميكية تخضع أيضاً لهذا التداخل الرباعى للأقنوم الأصلى المنبثق من الله الواحد الذى يتكون من العقل والروح والمادة الأولى والطبيعة، فالعدد (٤) لا يعتبر أساس حقيقة الفضاء فحسب، بل أيضاً أساسًا لعنصر الزمن، فهو أفضل الأعداد التى تمثل، على الأرض، الوحدة بمفهومها الشامل.

لقد حاول إخوان الصفاء، بصفة عامة، تقديم فلسفة تحليلية لا تخلو من التميز والتجديد على عكس ما اعتقدنا فى الوهلة الأولى. فإذا كانت الأعداد فى الفلسفة الفيثاغورثية هى عبارة عن آلهة، فقد صارت فى فلسفة إخوان الصفاء كائنات ملائكية نشطة تعمل على نشر الوحدة على جميع الكائنات لتأكيد مرجعيتهم إلى الأصل الواحد للكون وللوجود.

وبشكل عام، فإن تأكيد فكرة تعددية كل موجود وبصفة خاصة كل كائن بشرى، أى فكرة «الواحد المطلق» طبقاً لحالة كل كائن، تفتح الطريق أمام رؤية إلهية بشرية مزدوجة الأبعاد للإنسان تشبه إلى حد كبير ما صرح به الشيعة فيما يتعلق بالأئمة، وهنا، نجد مرة أخرى، إحدى النقاط التى تربط عقيدة إخوان الصفاء بالعقيدة الشيعية المتطرفة ولاسيما الطائفة الإسماعيلية حيث يظهر وبوضوح مفتاح مضمون فلسفة الرسائل.

ونختم عرضنا لرسائل إخوان الصفاء بالتوقف عند إحدى النقاط الثانوية والتى تتسم بالغموض بعض الشىء وهى الأساس الذى يرتكز عليه تكوين هذه الرسائل فى ٥٢ أو ٥١ رسالة مقسمة على أربعة أجزاء تحتوى بالتوالى على ١٤ـ ١٧ـ١٠ـ١١ رسالة.

ويظهر، بجلاء، أن هذا التكوين مفتعل إلى حد كبير، فهو يحتوى على كثير من التعديلات. فلماذا أراد إذاً إخوان الصفاء الوصول إلى هذا العدد بالتحديد؟

لم نجد، للأسف، إجابة مرضية على هذا السؤال، غير أن هناك خبرًا منسوبًا إلى الإمام جعفر الصادق، رواه القاضي النعمان[١٠] يصف فيه الطقوس التى كان يمارسها الأئمة، قد يكون تفسيراً لتكوين الرسائل على هذا الشكل. فقد كان أئمة الشيعة يكثرون من صلاة النوافل، فكانوا يقيمون ٥١ ركعة يومياً مقسمة كالآتى: ١٤-١٧-١٠-١١ ركعة.

فإذا كان لا يوجد أى تفسير آخر يكشف سر هذا التكوين، فإننا نستطيع على الأقل، أن نستنتج من التفسير السابق تأثر الرسائل بتأملات التراث الشيعى والذى يأتى ليعطى صلابة وقوة للعقيدة العددية التى تتسم بها رسائل إخوان الصفاء.

هوامش وتعليقات

١- أطلق عليهم هذا الاسم استناداً للآية ١٧١ من سورة النساء التى تتهم المسيحيين بالمغالاة فى تمجيدهم لدور المسيح.

٢- لقد ادعى المغيرة أنه فى نهاية الزمان، سيقوم الملكان جبريل وميكائيل ببعث ١٧ شخصاً وسيحصل كل واحد من هؤلاء على حرف من الاسم الأعظم، وهكذا سيتمكنون من هزيمة جيوش الشر وسيفزون الأرض.

٣- رسائل إخوان الصفاء - بيروت - دار صادر - الجزء الثالث ص ١٨٠-١٩٩.

٤- رسائل إخوان الصفاء، الجزء الأول، ص٢١٥ .

٥- رسائل إخوان الصفاء، الجزء الأول ص١٩٧ و ص٢١٨ و ص٢٥٢، والجزء الثالث ص١٤٧ و ص١٤٩ .

٦- رسائل إخوان الصفاء، الجزء الثالث ص٣٧٧ و ص ٣٧٩.

٧- رسائل إخوان الصفاء، الجزء الأول، الفصل الثالث، والجزء الثانى، الفصل السادس عشر، والجزء الرابع، الفصل ٥٢.

٨- رسائل إخوان الصفاء الجزء الثانى، الفصل ٢٢، ٢٣، ٢٥.

٩- رسائل إخوان الصفاء، الجزء الأول ص٤٩-٦٠ والجزء الثالث ص١٨١ والجزء الرابع ص١٩٩-٢٠٠.

١٠- انظر كتاب «دعائم الإسلام»، القاهرة، ١٩٥١، الجزء الأول ص٢٠٨.



محمد رسول الله بخط التعليق

الفصل الرابع

علم الحروف والفلسفة
(ابن سينا والصوفية)

سنحاول فى هذا الفصل إلقاء الضوء على دراسة صغيرة وغريبة فى آن واحد قام بها ابن سينا ضمن مؤلفاته العديدة وهى مخطوط بعنوان «الرسالة النيروزية فى معانى الحروف الحجازية»[1] قدم فيه ابن سينا تفسيرًا للحروف المقطعة التى تفتتح بها بعض السور فى القرآن وعددها ٢٩ سورة، والحقيقة، إن هذه الحروف المقطعة تعد لغزاً من نوع فريد؛ فعلماء التأويل المسلمين المعروفين كانوا شديدى التحفظ فيما يتعلق بتأويل هذه الحروف، على الرغم من إسهابهم، عند تفسير القرآن، فى شروح تتعلق بفقه اللغة وذكر الروايات التى تستند بشكل أو بآخر إلى الحديث الشريف، ولقد عرض الطبرى فى تفسيره بعض المحاولات التى قام بها المفسرون من أجل توضيح معنى هذه الحروف ولكنه ذكرها على سبيل الافتراضات غير المؤكدة.

إن هذا الفراغ التأويلى ليس له أى تفسير. فربما لا يكون النبى قد ترك شرحًا واضحًا لهذا الموضوع ولكن ألم يوجه إليه أحد الصحابة سؤالاً فى هذا الشأن؟

إن هذا السؤال يطرحه العلماء من كل جيل لأن الله عندما أنزل القرآن إلى البشر كان يهدف إلى نقل رسالة واضحة تحقق النفع والفائدة لكل البشر، فما المعنى الذى قد تتضمنه هذه الحروف الغامضة والذى لا يستطيع العقل البشرى إدراكها؟

لقد اهتمت الأوساط الصوفية الباطنية بهذه القضية، فرأوا أن الآيات القرآنية تحتوى على معانى متدرجة المستوى تتوافق مع اختلافات قدرات البشر فى التقرب إلى الله. لذا فقد ظهر مبكرًا الاتجاه إلى رؤية آثار اللغة السماوية فى هذه الحروف والتى لا يستطيع كشف معانيها سوى الأرواح الطاهرة القادرة على تخلل الجدار الظاهرى للغة.

بيد أن الهدف الذى من أجله قام ابن سينا بهذا العمل لم يكن مطلقاً تقديم دراسة باطنية تعليمية أو رؤية فلسفية تقليدية، فلقد شرح فى المقدمة المناسبة التى دفعته إلى القيام بهذا العمل، لقد أراد تقديم هدية إلى الأمير أبى بكر محمد بن عبد الرحيم(٢) بمناسبة رأس السنة الإيرانية الجديدة وهو عيد النيروز، ولكن بسبب عدم قدرته المادية على شراء هدية تليق بمكانة هذه الشخصية فقد ذكر قائلاً: «لقد رأيت أن أكثر الأشياء المرجوة وأسمى الهدايا على الإطلاق هى تعاليم الحكمة ولاسيما الحكمة الإلهية التى تنبع من ديننا الحنيف، إن أكثر أسرار الحكمة والملة غموضاً، تلك المعانى التى تتضمنها الحروف المقطعة والتى تفتتح

بها بعض السور القرآنية؛ لذا شرعت فى تخصيص دراسة لتوضيح معنى هذه الحروف وتقديمها هدية فى عيد النيروز» ص ١٠٥.

لقد قسم ابن سينا هذه الدراسة إلى ثلاثة أقسام منفصلة. يعرض فى القسم الأول العناصر الأساسية لعلمه الكونى والذى يبدأ بالخالق الواجب، الوجود المطلق، العلم الخير والقدرة المطلقة وهو الجوهر الإلهى؛ هذا الجوهر ينبثق منه «العقل» وهو عالم يحتوى على المدركات المجردة من المادة. والعقل بدوره يولد «النفس» وهو عالم يتكون من الكائنات المرتبطة بطريقة ما فى تكوينها بالمادة.

والنفس هى التى تؤثر على الأفلاك السماوية التى تحدد بدورها حالة العوالم السفلية. أما المستوى الرابع فهو «الطبيعة» وتشكل مجموع القوى التى تتخلل العالم الأرضى وتمنحه الحياة وتوجهه فى آن واحد. وأخيرًا، هناك المستوى الخامس وهو العالم الحسى، وقد حرص ابن سينا فى هذه المرحلة على التمييز بين الجسم الأثيرى والجسم العنصرى الكثيف.

إن كل قوة من هذه القوى، كما يوضح ابن سينا، يمكن إدراكها إما فى ذاتها أو بواسطة علاقتها بالعالم الذى يتبعها. وهناك أنواع كثيرة من العلاقات التى تلعب دورًا هامًا فى هذا التكوين، يطلق على العلاقة الأولى، «الإبداع» أو النشأة الأولى التى يتكون فيها «العقل» خارج «الجوهر». ثم يأتى بعد ذلك الانبثاق عن طريق وسيط مثل انبثاق «النفس» من «العقل». ويطلق ابن سينا على هذه العلاقة «الأمر» وهو مرادف للإبداع فى بعض النصوص الأخرى.

ويسمى مرحلة خلق الفضاء والأفلاك «الخلق». أما خلق العالم الجسمى الأرضى فيسمى «التكوين».

وفى القسم الثانى من رسالته، يعرض ابن سينا العلاقات المتبادلة بين هذه الانبثاقات الكونية وحروف الهجاء على طريقة (أبجد). يرمز إلى مستويات الخلق فى حد ذاتها بالأحرف الأولى طبقاً للترتيب المعتاد: فالألف هو الجوهر الإلهى = (١) والعقل هو الباء = (٢) والنفس هى الجيم = (٣) والطبيعة هى الدال = (٤).

أما باقى الحروف فهى تشير إلى مستويات الوجود طبقاً للتصنيف الخاص بها؛ فالجوهر الإلهى بالنسبة للعالم الذى يليه يشار إليه بحرف الهاء = (٥) والعقل بحرف الواو = (٦) والنفس بحرف الزاى = (٧) أما الطبيعة فهى حرف الحاء = (٨). وهناك أخيراً العالم الحسى والذى يحدده العالم الذى يسبقه ولكنه لا يولد أى مستوى جديد من الوجود ولذا فيشار إليه بحرف الطاء = (٩).

ويوضح الجدول التالى هذا التصنيف:

	معنى الحروف فى ذاتها	فى علاقتها بمستويات الوجود
الله	الألف = ١	الهاء = ٥
العقل	الباء - ٢	الواو - ٦
النفس	الجيم = ٣	ا لزاى - ٧
الطبيعة	الدال = ٤	الحاء = ٨
الجسد		الطاء = ٩

ويعبر ابن سينا عن طبيعة علاقات الانبثاقات بين العوالم بواسطة عملية حسابية بسيطة وهى (الضرب). فمرحلة «الإبداع» تعبر عنها العلاقة بين حرف الهاء وهو (الجوهر المنشئ) وحرف الباء وهو (العقل) أى بضرب ٥ × ٢ ويكون الناتج هو رقم (١٠) وهو القيمة العددية لحرف الياء، وهذا يعنى أن الإبداع = حرف الياء.

إلا أن ابن سينا يستبعد منذ البداية أية نتيجة يكون حصيلتها رقم مركب من أكثر من حرف؛ لذا فهو يرفض، فيما يتعلق بمرحلة «الأمر الكونى» حصيلة ضرب ٥ × ٣ الذى ينتج عنه رقم (١٥)، لأن هذا العدد يوافق فى الحروف حرف الياء والهاء، أى أنه يحتوى على ازدواجية فى المعنى، وهذا يتناقض مع البساطة المرجوة من الناتج الحرفى. ولهذا فإن ابن سينا يعبر عن مرحلة «الأمر» بحصيلة ضرب ٥ × ٦ = ٣٠ وهو القيمة العددية لحرف (اللام). ونفس الخطوات يتم اتباعها فى المراحل الأخرى:

فمرحلة «الخلق» يعبر عنها ضرب ٥ × ٨ ليكون الناتج (٤٠) أى حرف (الميم). ومرحلة (التكوين) ضرب ٥ × ٤ وحصيلتها (٢٠) وهو يوافق حرف (الكاف).

ويشير ابن سينا فى النهاية إلى أنه من الجائز تصور أكثر من مستوى للوجود الأعظم فى آن واحد، وفى هذه الحالة، يتم جمع القيمة العددية لكل مستوى مع المستوى الآخر. فعلى سبيل المثال، الحركة الكونية تجمع بين «الأمر» و «الخلق» أى بين ٣٠ و ٤٠ وحصيلته (٧٠) الذى يوافق حرف (العين). وإذا اتبعنا الأسلوب

نفسه. فإن جمع قيمة «الخلق» و «التكوين» أى بجمع ٤٠+٢٠ سيكون الناتج هو (٦٠) وهو حرف (السين). وإذا تم جمع قيمة مرحلة «الأمر» و «الخلق» و «التكوين» سيكون الناتج هو ٩٠ أى حرف (الصاد). وإذا أضفنا على هذا العدد رقم (١٠) وهو «الإبداع» سيكون الناتج هو (١٠٠) أى حرف (القاف) الذى إذا تم تضعيفه يعطى رقم (٢٠٠) أى حرف (الراء) ٠٠٠ الخ.

وينتقل ابن سينا فى القسم الثالث من هذه الدراسة إلى تفسير الحروف النورانية فى القرآن مستندًا إلى المبادئ التى سبق أن أشرنا إليها والتى أتاحت له اكتشاف معنى كونى لكل حرف من هذه الحروف الأربعة عشر والتى تفتتح بها تسع وعشرون سورة قرآنية. فهو يقرأ هذه الحروف المقطعة كقسم للمتكلم الإلهى الأسمى. وانطلاقاً من هذا المبدأ، يكفى أن يستعرض السور التسع والعشرين مطبقاً جدول التفسير الذى سبق وأشرنا إليه. حتى يتعرف على معنى كل حرف من هذه الحروف. فعلى سبيل المثال (الم) تعنى «بسم الأول، الآمر، الخالق» و (يس) تعنى «قسم بالإبداع الأول والآخر وهو الخلق الذى يتضمن التكوين» و (طسم) تعنى «قسم بالعالم المادى الناجم عن الخلق والذى يحتوى التكوين، وقسم بالأمر الناتج عن الإبداع».

وبعد أن قمنا باستعراض موجز للخطوط العريضة وأهم الأفكار التى يحتوى عليها هذا المخطوط، ماذا يمكننا أن نستنتج من هذه الدراسة القصيرة؟ وما الطريقة المثلى لتناولها؟

إن النظرة الأولى لهذا العمل توضح، فى الواقع، طبيعة تكوينه المصطنعة والتى تكشف بسهولة وتحدد عناصر ضعف الدراسة من المنظور الفلسفى، ولكننا لن نتوقف طويلاً عند هذه النقطة؛ لأن ابن سينا لم يكن يهدف من وراء هذه الدراسة، إلى تقديم عمل استنباطى، فإن اهتمامنا بـ «الرسالة النيروزية» لا ينصب تحت هذا المنظور. فهى تحتوى بالطبع على افتراضات تفيد المهتمين بفلسفة اللغة، فقد عقد ابن سينا صلة بين النظام الكونى والحروف الأبجدية بنظام (أبجد) التى اكتشف فيها قانون ميتافيزيقى أعلى باعتبار أن هذه الحروف تعبر عن انبثاقات الخلق وما بينها من علاقات متبادلة يتم فيها تلقى أمر الخطاب الإلهى والذى ينقله القرآن إلى البشر على الأرض.

ومن جهة أخرى، فمن الواضح أن هذه الحروف المقطعة تحتوى كل منها على معنى ضخم فى حد ذاته، لأنها تشير إلى أصل الوجود مما يدل على وجوب وجود لغة أصلية كانت سابقة على النظام اللغوى نفسه وتعمل، كما توضح الدراسة، طبقاً لمنطق حسابى. إلا أنه، بسبب غياب الوضوح، قد يكون من الصعب رسم إطار لهذه اللغة الميتافيزيقية استناداً على «الرسالة النيروزية» وحدها.

كيف السبيل، إذاً، إلى توضيح هذه الدراسة القصيرة؟ هل يمكننا إجراء مقارنة بينها وبين النصوص السابقة أو بين بعض الدراسات القريبة منها فى الفكر؟

إن محتوى «الرسالة النيروزية» لا يتيح إجراء مثل تلك المقارنات ولا يعتبر فى حد ذاته سنداً فى مثل تلك التأملات. ففيما يتعلق بالنصوص السابقة، افترض «لويس ماسينون» فى مقال عن «الرسالة النيروزية» كتبه عام ١٩٥٢(٣). أن يكون الأصل فى تأملات ابن سينا حول الحروف، يرجع إلى الأفكار الإسماعيلية. وسنحاول، فيما يلى، التأكد من صحة هذا الافتراض من عدمه.

يستنتج ماسينيون هذا الدليل من اكتشاف «هنرى كوربن» لمخطوط يرجع إلى الطائفة الإسماعيلية يوضح العلاقات المتبادلة بين درجات ومستويات الوجود والحروف التسعة الأولى للأبجدية. بيد أنه تم اكتشاف فى الآثار الإسماعيلية لنصوص أوضح حول هذا الموضوع ومن بينها «كتاب الكشف».

ويتكون هذا الكتاب من ستة فصول منفصلة وينسب إلى «جعفر المنصور اليمانى» أحد أصحاب المقام العارفين الفاطميين الذى وافته المنية فى القرن العاشر تقريبًا. إلا أنه طبقًا لـ Wilfred Madelung يرجع هذا الكتاب إلى مجموعة من الدراسات القديمة السابقة على العصر الفاطمى والتى يعود بعضها إلى القرن التاسع.

وأيًا كان الأصل لهذا الكتاب، فإن الفصل الثانى فيه يحتوى على عرض منطقى للصلة بين أصل الكون والحروف الأبجدية العربية التى يتكون منها الوحى القرآنى، فقد أنشأ الله، المنزه عن أى تعريف، عرشه كالرحم لكل ما سيكون، وميز بين العرش، الأصل الباطنى الذى يحتوى على جوهر الأشياء وبين العرش الظاهر وهو

«الكرسى» والذى يظهر جوهر الأشياء ويلعب دورًا كبيرًا فى تخيل الخالق، ويتحد الباطن والظاهر فى محور مكون من الحروف يحركه الله كيفما يشاء.

ويلى ذلك وصف للحروف التى تدل على العرش والحروف التى تدل على الكرسى، وتقسم هذه الحروف إلى مجموعات: مجموعة ثنائية فيها الباطن وفيها الظاهر ومجموعة سباعية (تحتوى على تصنيف لمراتب الأنبياء والأئمة) ومجموعة اثنى عشرية (تحتوى على الرموز الفلكية). ويتضح فى هذا الوصف التمييز بين العقل والنفس. إلا أن هذا الكتاب يبعد كثيرًا عن فكر «الرسالة النيروزية». فالنظام الأبجدى المتبع يختلف عن نظام ابن سينا. فقد اعتمد «الكشف» على نظام ا ب ت ث ج ح كما أنه لم يتناول تفسير الحروف المقطعة.

هناك عمل آخر اختص بطريقة مباشرة بتطبيق علم الحروف على العلم الكونى وهو «كتاب الافتخار» لأبى يعقوب السجستانى الذى يعرض فى الفصل الخامس منه، شرحًا لعلم كونى قديم يرتكز على فكرة انبثاق الحروف ولاسيما الكلمتين الأوليتين وهما «كونى قدر». فالكون كله ينبثق، كما يوضح الكتاب، من هاتين الأقنومتين. الأول مذكر وهو (قدر) السابق أنطولوجيًا للتالى وهو (كونى) طبقاً للعلم الكونى الإسماعيلى.

وفى محاولة للتوفيق بين الأسطورة الإسماعيلية القديمة واتجاهاته الإفلاطونية الحديثة، شرع السجستانى فى تقديم

عقيدة فيضية تدور فيها الحروف السبعة المعنية فى دورة بالتبادل مع للأنبياء التى تنشأ منها حروف أخرى، إن هذه التأملات من شأنها رسم الطريق واكتشاف مفتاح تطهير النفوس وفهم أسس للعالم والله: فهى إذًا، أداة لتحقيق السعادة والرحمة.

بيد أن هناك صعوبة فى المقاربة بين هذه التأملات الإسماعيلية وتلك التى اقترحها ابن سينا فى رسالته النيروزية؛ فإن العلم الكونى ونظام الحروف فى كل منهما يتم عرضه بشكل مختلف، كما يختلف الهدف فى كل منهما. فالأعمال الإسماعيلية، تهدف إلى توضيح أن التصنيف السباعى للأنبياء والأئمة ولاسيما الإمام الأعظم وهو الإمام القائم الذى ننتظر مجيئه بحماس، يرتكز على رؤية ميتافيزيقية.

فالهدف الغالب كان إذًا تقديم عقيدة أخروية وأيضاً سياسية. أما الرسالة النيروزية فهى لا تحتوى على هذه الرؤية، لأن رؤية ابن سينا كانت فصل الخطاب القرآنى عن التاريخ الأرضى وإعادته إلى الأحداث الميتافيزيقية الثابتة لأصل الوجود.

ومن جانب آخر، فإن الأعمال الإسماعيلية التى نحن بصددها لم تتناول تفسير الحروف المقطعة التى تعد الموضوع الرئيسى للرسالة النيروزية، وتنطبق هذه الملاحظات أيضاً على نصوص إسماعيلية أخرى تناولت هذا الموضوع بالتنويه أو بشكل جزئى. كما تنطبق على النصوص التى عرضها Heniz Halm فى كتابه

بـعـنـوان"Kosmologie und Heilslebie der früben Ismâ'âliya" (٤)
«العلم الكونى» وعلم الشفاء فى الطائفة الإسماعيلية القديمة».

لذا فـالمقـارنة بين الرسـالة النيـروزية والآثار الإسـمـاعـيليـة مستبعدة على الإطلاق.

كمـا أن المقـارنة بين رسـالة ابن سـينا و «رسـائل إخوان الصـفاء» ستقودنا إلى النتيجة نفسها، فابن سينا، كما نعرف، قد اطلع على هذه الرسـائل، ونلاحظ وجـود تشـابه بين علمـه الكونى والأفكار الأفـلاطونيـة الحديثة التى عـرضـهـا الإخـوان فى الرسـائل و الذين أكدوا وجود توافق حسـابى يضم أطراف الكون؛ لـذا فـقـد شـرعـوا، بتطبيق رؤية فيثاغورثية واضحة، إلى عقد صلة تبادلية بين مختلف مستويات الوجود وبين المعطيات العددية كما سبق أن رأينا، ولكنهم لم يخصصوا سوى فقرة صغيرة للحروف المقطعة وفيها أوضحوا أن هناك رابطة قوية بين الأسرار التى تنطوى عليها هذه الحروف وبين علم الأعـداد ولاسـيـمـا الأعـداد ٢٨ و ١٤ و ٥ ، ولكنهم لم يعقـدوا أية صلة شكلية بين الحـروف والأعـداد. وعلى الرغم من اتجاه تأمـلاتهم حول الحروف المقطعة إلى علم الملائكة، إلا أنهم صـرحوا فى ختام رسائلهم أن هذه الحروف تحتوى على كل أسـرار القرآن التى يجب عدم الكشف عنها (إخوان الصفاء، الجزء الثالث ص٢٠٨ و ص٣٨٣).

ويتضح مما سبق أيضاً صعوبة تحديد مصدر لأفكار ابن سينا فى رسالته النيروزية. وعلى الرغم من ذلك، أود الإشارة إلى وجود

صلة بين هذه الرسالة والرسائل الصوفية القديمة التى لم يطلع عليها ماسينيون. فعلم الحروف فى الصوفية الذى نشأ فى البداية وبصفة خاصة فى الأوساط الشيعية، قد انتشر أيضاً فى الحركة الصوفية السنية التى كانت فى ذلك الوقت فى بواكير عهدها، ولكنها بلغت مستوى كبيرًا من النضج فى القرن الثالث والرابع الهجرى. ومما يشهد على ذلك، بعض الفقرات التى وجدناها فى كتاب "ختم الأولياء" للترمذى والتى تناولت علم الحروف، بالإضافة إلى دراسة كتبها «سهل التسترى» بعنوان «رسالات الحروف»[٥] يوضح فيها المؤلف أن الحروف الهجائية هى الأصل والجذور الحقيقية للكائنات أى أنها أصول الأشياء.

فالله، ويشير إليه باسم الإشارة «هو» نشر فى الكون الكلمة الخلاقة وهى «كن» التى شكلت ذرات التراب الأصلية أو «الهباء». فهذه الحروف الأولى هى، إذًا، الأشكال الروحانية لكل شىء فى الوجود، ثم تحولت هذه الحروف إلى «معقولات» فى الهواء قبل أن تأخذ شكل «المفعولات» فى مياه عالمنا السفلى.

ويتضح من هذا الوصف، أن التسترى قد قدم صورة معبرة لعلم أنطولوجى حقيقى يشكل فيه اللوجوس، الوجود نفسه والشكل والطاقة لكل موجود، وبالإضافة لذلك، فإن هذه الرسالة تذخر بالعديد من التأملات حول الحروف النورانية الأربعة عشر والتى جعلها التسترى محوراً للعرض الذى قدمه عن انبثاقات العوالم واختتم أيضاً بها رسالته، فهو يشير إلى أنه إذا كان الله قد ذكر فى

سورة مريم «كهيعص» آية [1]، فهذا يدل على أن فعل «كن» قد سبق «الهباء».

إن تأملات التسترى الخصبة حول الحروف قد استحق بها الشهرة الكبيرة والدائمة التى حظى بها حتى أن سهرودى قد جعله أحد الوارثين للفكر الفيثاغورثى على أرض الإسلام بعد «ذى النون».

ومهما يكن، فإن ما يعنينا هنا هو الإشارة إلى التقارب بين الفكر التأويلى لكل من ابن سينا والتسترى. وحتى إن كانت هناك بعض الافتراضات التى ذكرها أحدهما ولم يذكرها الآخر، مثل الافتراض حول طبيعة اللغة التى ذكرها التسترى ولم ينوه حتى عنها ابن سينا الذى بدوره اقترح استخدام القيمة العددية للحروف ولكن التسترى لم يشر إليها، على الرغم من هذه الاختلافات، إلا أن خطاب كل منهما يسير فى الاتجاه نفسه وهو أن الحروف المقطعة تتحدث عن أصل الكون، وقد نزلت هذه الحروف منفصلة عن أى كلام فى القرآن، ليس لأنها خاوية من أى معنى، بل لأنها تشير إلى مستويات الوجود التى تقترب بقوة من الواحد الأحد لكى تترجم باللغة البشرية العادية.

وهناك دراسة ثانية وجدنا أنها قريبة من فكر ابن سينا وهى «كتاب خواص الحروف وحقائقها وأصولها» لابن مسرة الفيلسوف والحكيم الأندلسى الذى توفى عام ٩٣١ ولم يعرفه أحد إلا من خلال بعض النصوص المتناثرة فى بعض الكتب، ولكن اهتم به

العلماء المعاصرون بسبب تقارب فكره مع فكر «أمبيدوكل». أما رسالته عن الحروف، التى نشرت حديثاً[٦]، فهى لا تتعارض مع فكر الفيلسوف اليونانى ولكنها أضفت على فكر ابن مسرة صبغة إسلامية، وفيما يتعلق بجوهر هذه الرسالة، يظهر بوضوح تأثر ابن مسرة بـ «رسالات الحروف» للتسترى، حتى أنه يشير إليها صراحة. فقد ذكر، مثل التسترى، أن هناك صلة عميقة تربط نظام العالم والحروف والآيات القرآنية بمراحل صعود الروح فى الخطى الصوفية. فهو يشدد، مثله أيضاً، على دور أسماء الله الحسنى فى هذا التكوين، وهو ما يطلق عليه نظرية الأسماء الحسنى التى اتخذت بعداً! واسعًا فيما بعد فى كتاب «الفتوحات المكية» لابن عربى. وقد كرّس ابن مسرة جهده الرئيسى لتأويل معنى ووظيفة الحروف المقطعة. فقد تناول تفسير كل حرف على حدة ثم قدم بعد ذلك تفسيراً مفصلاً لكل فاتحة من فواتح السور القرآنية التسع والعشرين. (فالألف) يتعلق بالجوهر الإلهى ص٣١٩ ونتج عن تمدده الخطى حرف (اللام) ومن هنا جاء التأكيد بحرف (ال) فى اللغة العربية والنفى بحرف (لا). وفيما يتعلق بالنظام الصوتى للحروف، فقد ذكر أن حرف (الراء) يعبر عن كل حركة وتمدد وتفصيل فى الوجود[٧]. أما فواتيح السور القرآنية فقد قدم تأويلاً لكل منها على حدة وذلك بجمع معنى هذه الرموز. فتصبح «المص» مثلاً، هى الكتابة الخطية لعملية انبثاق الروح الإلهية الظاهرة وهى حرف (اللام) والعوالم السماوية للملائكة (حرف الميم من ملائكة)

والكائنات المادية (حرف الصاد) من الجوهر وهو حرف (الألف) ص٣٢٨-٣٣٢ .

وفى هذا الصدد، تقترب رسالة ابن مسرة من أفكار ابن سينا فى رسالته النيروزية. فنجد أن ابن مسرة قد عقد صلة بين أفكاره وأفكار الفلاسفة الآخرين؛ فقد كتب قائلاً فى (المص): «لقد استخدم الفلاسفة صيغة أخرى للحديث عن هذه الصفات. فقد ذكروا أن هناك أربعة مستويات للموجودات: الجوهر الإلهى (سبحانه تقدست أسماؤه) الذى أظهر الأشياء، ثم العقل الكونى الذى يطلقون عليه «المتمال» المجرد من كل مادة والذى تجتمع فيه الصفات الإلهية. ثم النفس العليا التى تنغمس فى المادة، وأعنى هنا مادة الجسم. وتحمل جسم العالم (...) ثم يأتى مستوى الطبيعة التى تنغمس فى الجسم الفضائى وتشكله» ص ٣٣٠.

ولا نستطيع أن ندعى أن التقارب بين الرسالتين كامل، لأن ابن مسرة قد طبق طريقة للمقارية بين الرموز الحرفية لا يستخدم فيها القيمة العددية مثل ابن سينا. غير أن التقارب العام بين الخطابين ملموس إلى حد كبير.

ولا نهدف هنا إلى القول بأن ابن سينا قد اطلع على هاتين الرسالتين ولهذا فقد تأثر بهما، لأن مراجعة نحوية من الرسالتين، مثل الرسالة النيروزية، هما من الأعمال الهامشية بين أعمال مؤلفها، بيد أنه من اللافت للنظر أن سهل التسترى لم يستند كثيراً إلى نظرية رمزية الحروف فى تفسيره الخاص للقرآن بعنوان

«تفسير القرآن الأعظم». ولكن ما يهمنا الإشارة إليه هنا هو أن الأفكار التى طرحها ابن سينا فى رسالته كانت منتشرة منذ زمن طويل فى الأوساط السنية الصوفية والشيعية.

ويبقى سؤال مهم، وهو مكانة الرسالة بين أعمال ابن سينا حيث لا يوجد أية إشارة أو تنويه لهذا النوع من التأملات. وقد يخطر مباشرة على الذهن أن تكون هذه الرسالة مزيفة ومدسوسة على أعمال ابن سينا. إلا أن كثرة ما تركه ابن سينا من مخطوطات(٨) للنيروزية يجعلنا نستبعد هذه الفكرة. ولكن هناك افتراضًا، فى رأيى يعتبر الأرجح، وهو أن موهبة ابن سينا وفكره الواسع والذى يشمل مجالات شتى، يتضمن أيضاً بعداً أكثر خصوصية يستطيع فيه الفكر الصوفى أن يجد مساحة من الحرية بعيداً عن قيود البراهين المنطقية، ليتصل بطريقة ما بالكشف الصوفى.

فأين يجد الفكر الشغوف المتقد مثل فكر ابن سينا مجالات للتخيل أكثر من مجال البحث عن الصلة المشتركة التى تجمع بين أصل اللغة وأصل الكون والتى تتركز فى شىء واحد ألا وهو الوحى القرآنى، حيث تعبر الحروف المقطعة عن مولد العالم كأنه صرخة أولى غير منطوقة تحمل بالقوة كل المعانى المستقبلية.

هوامش وتعليقات

١- نشر هذا المخطوط فى القاهرة عام ١٩٠٨ فى كتاب بعنوان «رسائل فى الحكمة والطبيعيات للشيخ الرئيس ابن سينا».

٢- أحد القادة السياسيين غير المعروفين فى ذلك العصر والذى يرى ماسينيون أنه قد ينتمى إلى عائلة وزراء بنى بويه التى تنتمى إلى الدولة البويهية.

٣- راجع كتاب «الفلسفة الشرقية لابن سينا وابجديته الفلسفية»، المعهد الفرنسى للدراسات الشرقية، القاهرة ١٩٥٢، الجزء الرابع ص١-١٨، أعيد طباعته فى بيروت _ دار المعارف ١٩٦٣ الجزء الثانى ص٥٩١-, ٦٠٥

راجع أيضاً كتاب Denis Orill بعنوان «الفتوحات المكية» ص٤١٩-٤٢١ .

٤- راجع أيضاً كتاب Wiesbaden لفرانز ستينر Franz Steiner Verlag عام ١٩٧٤ ص٤-٥٢ و٥٨-٦٦ و ٢٠٦-٢٢٧.

يحتوى هذا العمل على مراجع ثرية حول التأملات الإسماعيلية القديمة عن الحروف الهجائية.

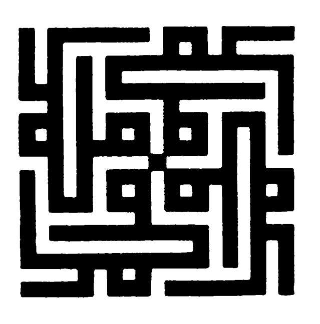
٥- نشرت هذه الدراسة فى كتاب م.ك جعفر «سهل بن عبد الله التسترى» ـ القاهرة ١٩٧٤ ص٣٦-٢٧٥ وفى هذا الصدد نود أن نوجه الشكر إلى

Denis Grill بجامعة Provence الذى ساعدنا مشكوراً فى الاطلاع على هذه الدراسة النادرة وكذلك رسالة "ابن مسرة" التى سنشير إليها لاحقاً.

٦- قام بنشر هذه الرسالة م.ك جعفر فى كتاب بعنوان «من قضايا الفكر الإسلامى» - القاهرة ١٩٧٨ ص٢١١-٢٤٤ .

٧- انظر ص٣٢٣ و ص٣٣٢. تذكرنا هذه التأملات بملاحظات أفلاطون فى حواره «الكراتيل». فعلى الرغم من اختلاف الهدف فى كل من الدراستين، فابن مسرة لا يهتم بإثبات التوافق الطبيعى بين الكلمة والشىء الذى يشير إليها، ولكنه يهتم أكثر بالتبادلات الكونية بين الكلمة الإلهية، كما تظهر فى القرآن، وبين المعطيات الكونية.

٨- يوجد ٢٢ مخطوطاً طبقاً للقائمة التى ذكرها جورج شحاتة قنواتى فى كتابه «مؤلفات ابن سينا» القاهرة ١٩٥٠ ص ١١٩.



رسم زخرفى مكرر أربع مرات بالخط الأسود الكوفى
لاسم النبى «محمد» ﷺ
والأرضية تمثل اسم الأمام على

الفصل الخامس

علم الحروف والسحر
سحر الحروف فى شمس المعارف للبونى

النص الذى نقترح تحليل بعض جوانبه فى هذا الفصل هو كتاب «شمس المعارف ولطائف العوارف» للبونى والذى يصعب تحديد تاريخ تدوينه بدقة فى تراث الفكر الإسلامى، مؤلف هذا الكتاب هو أحمد بن على البونى، ولد بمدينة بونه (عنابة حالياً بالجزائر) وفى أغلب الظن أنه توفى، طبقاً لما ذكره حاجى خليفة فى عام ١٢٢٥م ٦٢٢هـ. وقد أكدت جميع الطبعات[١] الحالية هذا التاريخ نظراً لعدم وجود أية معلومات أخرى مناقضة. بيد أنه لا يمكننا قبول هذا التاريخ دون أن يكون لنا عليه بعض التحفظات، لأن العديد من المعلومات التى وردت فى «شمس المعارف» تشير إلى أن تاريخ تدوينه كان متقدماً على التاريخ السابق. ففى الفصل الخاص بمعرفة «الجفر» الذى تركه جعفر الصادق، يستحضر البونى الاسم المقدس مع القيام ببعض الحسابات من بسط وكسر وضرب ليستطيع الكشف عن أهم التواريخ والأحداث السياسية والانقلابات

فى تاريخ الدولة الإسلامية[٢] مثل مقتل عمر بن الخطاب وعثمان .. إلخ. فبعد سرده لبعض الأحداث المهمة فى العصر العباسى والفاطمى يذكر البونى قائلاً:

«إذا ضربت أصول المبادئ مع حرف الرمز كان الحاصل ستمائة وسبعة وعشرين، وكان ذلك فى عام كسر السلطان جلال الدين خوارزم شاه وزوال ملكه واعتلاء التتار على تلك البلاد وقيام الإفرنج فى بلاد العرب» [٣].

وفى فصل آخر يقول: «السيد والإمام فكر الدين الخوارزمى أعلن فى مكة عام ٦٧٠».

وبينما كانت تروى أحدى الروايات الخاصة بالإمام أبى الحسن الشاذلى المتوفى عام ١٢٥٨م ٦٥٦هـ، ذكر بعض الأبيات من رسالة ابن سابين الأندلسى المتوفى عام ١٢٧١م ٦٧٩هـ.

وفى الفصل الأخير من الكتاب الخاص «بالإسناد» عدّد البدنى سلسلة طويلة من أسماء العارفين الذين تلقى عنهم فنون السحر ليصل في النهاية إلى تعاليم النبى محمد. وبين هؤلاء نجد خمسة أسماء تفصل بين البونى وابن عربى المتوفى عام ١٢٤٠م ٦٣٨هـ تلقى عنهم علم الحروف والأوفاق.

فإذا لم يكن من اللازم معرفة عدد كل جيل من هذا الإسناد على حدى، إلا أنه من غير المعقول أن يكون مؤلف «شمس المعارف» كان فى ذلك العصر أكبر سناً من الشيخ الأكبر ابن عربى.

إن كل ما سبق ذكره من تواريخ، يشير إلى أن تاريخ تدوين هذا الكتاب يرجع إلى زمن متقدم على التاريخ المذكور فى كتاب «كشف الظنون». إلا أن المعلومات والتعليقات التى دونها ابن خلدون (المتوفى عام ١٤٠٦) فى مقدمته وفى كتاب «شفاء السائل» تعتبر الفيصل فى تحديد هذا التاريخ. غير أن التردد حول هذه القضية ظل قائمًا طوال قرن من الزمان من أجل تحديد تاريخ تدوين «شمس المعارف» أحد الأعمال الرئيسية فى تاريخ علوم السحر على أرض الإسلام.

وفيما يتعلق بالمصادر التى استند إليها فى تأليف «شمس المعارف»، لم يدَّع البونى مطلقاً تأليف عمل فريد من نوعه ولكنه ذكر أنه يقوم فقط بتعريف القرَّاء بتعاليم العارفين من أقطاب الزمن البعيد، وإذا تفحصنا الكتاب، نجد أن غالبية مصادره ترجع إلى أصول شرقية وبالتحديد إيرانية.

ونستشف هذه الأصول الشرقية الإيرانية من تقسيمه للعالم إلى مناطق جغرافية مسترشداً بالنجوم والأبراج الفلكية فيقول: «اعلم أن للحمل بابل وفارس وأذربيجان وللثور همدان والأكراد، والجوزاء لها جرجان وكيلان وسوفان، والسرطان له أرض الصين وشرقى خراسان. والأسد له الأتراك والتتر وما والاها، والميزان له أرض الروم إلى أمريكا(٤) وقبط مصر والحبشة، والعقرب له الحجاز واليمن وما يليها، والقوس له بغداد إلى أصفهان، والجدى له كرمان

وعمان والبحرين والهند. والدالى له الكوفة إلى أرض الحجاز. والحوت له طبرستان والبحرين والموصل وإسكندرونة». ص٢٦

وفى فصل «الإسناد» الذى سبق أن أشرنا إليه، يشكل العلماء الشرقيون والإيرانيون العدد الأكبر ممن نقل عنهم البونى، هل كان هذا التأثر يرجع إلى كثرة قراءاته من مؤلفات شرقية وإيرانية، أم أنه سافر بالفعل إلى الشرق كما فعل الكثيرون غيره فى موسم الحج على سبيل المثال؟ وللإجابة على هذا السؤال، لم يقدم «شمس المعارف» أو المصادر التاريخية الأخرى أية معلومات محددة.

أما المناسبة التى دفعته لتأليف هذا الكتاب، لم يتحدث عنها البونى إلا بشكل عابر فى الكتاب. ففى المقدمة مثلاً أشار قائلاً:

«(وإنى) لما رأيت كلام الأجلاء ممن علت كلمتهم وانبسطت فى الآفاق حكمتهم وعمت فى البرايا بركتهم قد ألفوا فى التصريف بالأسماء والصفات وأسرار الحروف والأذكار والدعوات وقد رغب إلى من تعلق بى وده فى توضيح ما ألفوه وذخيرة ما كنزوه فأجبته مع الإقرار بالعجز عن فهم مدارك السلف الماضين والأئمة المحققين الهادين ورجوت من الله بذل الاعتراف والاقتراف أن يمدنى من أرواح أرواحهم بلطائف الإسعاف فيكون النطق موافقاً للتحقيق ومفصلاً بلسان التصديق». ص٣

ثم يؤكد فى الفصل الأول الخاص بالحروف المعجمة حرصه على الالتزام بخطى السلف فى هذا المجال قائلاً: «أقول وبالله

التوفيق والهداية قد انقسمت مطالب الراغبين إلى قسمين دنيوى وأخروى، ونقسم كل واحد منها إلى أقسام بحسب المقاصد، وقد تكلم الناس فى معارضة الأوقات والوقوف على الكواكب والرياضات وأفعال الطلسمات قبل وضع هذا الكتاب والحديث عليه، وهذا العلم متسع رغب فيه خلق وثابروا عليه لاسيما من وجد لذلك أثرًا عظيمًا فأردت معارضة ذلك بوصف يجرى مجرى الخاصة فيما نحاه أهل هذا العلم وتكلمت فيه الحكماء الأوائل ووافق على ذلك القول كثير من الناس فتلك إن كثرت فى الدنيا أضرت فى الآخرة وهذا الذى أذكره لك تنتفع به فى الدنيا والآخرة». ص٥

وإذا كانت أهمية هذه الأقوال والتأكيدات تتركز فى توضيح رغبة البونى فى الاتصال والاندماج بالصوفية والباطنية التقليديين فى الإسلام، إلا أنها لا تقدم أية تفاصيل تتعلق بتدوين هذا الكتاب أو بصلته بالتاريخ.

ومن ناحية أخرى فإن فصول الكتاب تفتقر إلى التجانس والترابط فيما بينها، فكل فصل من فصوله الأربعين يعد دراسة مستقلة بذاتها، نحن. إذًا، بصدد عمل تجميعى لكتيبات تتناول، كل منها، أحد الجوانب المحددة فى علم الحروف، وفضلاً عن ذلك، نحن لا نفهم سبب ظهور الكتاب فى ثلاثة أجزاء مختلفة[٥] فضلاً على وجود تكرار حرفى لبعض الفقرات فى فصول متقاربة.

وقد نستطيع تفسير ذلك بأن تدوين هذا الكتاب كان فى الأصل بخط اليد، ثم أضيفت له، فى القرن السابع الهجرى، بعض الفصول والشروح والنصوص الجديدة مما يتسع معه التناقض بين تاريخ وفاة البونى وهو ٦٢٢هـ والتواريخ التى سبق أن ذكرناها عاليًا.

إلا أن هذا التكوين الذى ظهر عليه «شمس المعارف» كان منتشرًا فى الكتب المتعلقة بفنون السحر والتنجيم حيث تخضع مسألة نسب العمل لمؤلف ما إلى قواعد أخرى تختلف عن القواعد التاريخية الصارمة.

أما فيما يتعلق بمضمون الكتاب، فشمس المعارف كتاب يختص فى المقام الأول بالقدرة السحرية للحروف، فعلى الرغم من احتوائه على فصول عديدة فى علم الفلك والكيمياء ومعرفة الطالع، إلا أن الجزء الأكبر من الكتاب يهتم بشكل كبير ومحورى بكيفية استخدام القوة الخفية للحروف والأسماء لمعرفة الأحداث المستقبلية.

وقد سبق أن أشرنا فى فصل آخر، إلى أن التأملات فى علم الحروف تدور حول رؤية شاملة متجانسة للعالم والإسلام، وهذه التأملات يمكن تلخيصها فى النقاط الثلاث التالية:

- كل شىء فى الكون عدد، بدءًا من النبضات الأولى للفعل الخلاّق حتى أدق تفاصيل الظواهر فى العالم الأرضى السفلى. إلا أن طبيعة الأعداد تكتمل فى الحروف وهى الكلمة الإلهية التى مع

احتفاظها بقيمتها العددية، تولد معنى جديدًا فى كل لحظة من لحظات تكوينها للبنية الأساسية للعالم.

- ومن هذا المنطلق، تصبح المقارنة بين تكوين الكون والكلمة غير كافية، فالكون كله يتكون من كلمة، وهنا يظهر علم الكيمياء وفنون السحر باعتبارهما من العلوم التى تدرس شكل وتركيبة الظواهر فى الكون.

- فيما يتعلق بالحروف البشرية، سواء كانت حروف فى الصدر أو حروف فى اللسان أو حروف فى البديهة، فهى تعد الكشف الحقيقى للغة الكونية؛ فهى لا تناظرها فحسب، بل تشارك فى تكوينها، وعندما ينطق اللسان بالكلمات السحرية، فإن هذه الكلمات تمنحه سلطاناً على الكلمة الكونية التى تشكل الظواهر.

وانطلاقًا من هذه المبادئ الأساسية، سنحاول توضيح كيفية تطبيقها فى كتاب «شمس المعارف» الذى يتركز فى المقام الأول على الجانب التطبيقى لفن السحر أكثر من تقديمه لتأملات صوفية دينية.

إن النظرة الأولى لكتاب «شمس المعارف» تثير، فى الواقع، حيرة كبيرة. فالبونى بدءًا من الفصول الأولى، يشرع فى تقديم شروح عن العلاقات المتبادلة بين الحروف والأعداد والنجوم والمستويات الأنطولوجية الأصلية للكون والعناصر الأربعة المكونة للعالم (التراب والنار والماء والهواء) إلخ. إلا أن هذه التبادلات ينقصها دائمًا

التوافق. حتى أننا نجد استحالة فى تكوين شبكات متناسقة وكاملة لهذه العلاقات المتعددة استنادًا على شروح البونى، وفضلاً عن ذلك، فهناك انطباع سائد لدى القارئ بوهمية المقاربات والتوافقات التى يقوم بها المؤلف بين الحروف والأعداد، بيد أن الترابط فى الفكر البونى يظهر، ليس فى الجانب الفلسفى، ولكن فى رؤيته الشاملة للإنسان ووظيفته فى الكون. فإذا لم نطبق على هذا الكتاب الأطر المنطقية التى وضعها العلماء سلفاً، سنتمكن من الاستماع والفهم للشروح التى عرضها البونى وقد نستطيع آنذاك التوصل إلى نتائج جيدة ومرضية.

إن القارئ لكتاب «شمس المعارف» يكتشف، على الفور، وجود أفكار مقتبسة من التيارات الفكرية الفلسفية المعروفة والتى تقسم الكون إلى «عقل ونفس» هذا إلى جانب تيار الإشراق (مظاهر العلم الملائكى). ولكننا نلاحظ أن تأثير التيار الصوفى يظهر بشكل واضح وكبير، إلا أن المصطلحات التى يستخدمها البونى تبعد تماماً عن اتجاهات الفلسفة أو التصوف الدينى. فهو يهتم بشكل ملحوظ بفاعلية الأوفاق السحرية، أما الأفكار المتعلقة بالعلم الكونى والورع الصوفى فهى ليست سوى أدوات لتدعيم هذه الرؤية، ولكى يترجم رؤيته للعالم يوضح الجانب التطبيقى لفنون السحر، فإن البونى سيستخدم حتماً لغة تلائم هذا الخطاب وهى لغة علم الحروف. فالاستخدام الباطنى لحروف الهجاء العربية، يمكنه، فى الحقيقة، تقديم وصف للحركة الأساسية للكون فى إطار لعلم كونى منظم،

بالإضافة لوصف دور الإنسان والقدرة التى يكتسبها عند ممارسته لفنون السحر.

ويتناول البونى فى العديد من المواضع القضايا المتعلقة بالعلم الكونى وأصل الكون ويظهر هنا تأثره بمبادئ الفلسفة الأفلاطونية الحديثة التى أعاد استخدامها الصوفيون والفلاسفة من علماء الدين الإسلامى، ولكن، وكما أشرنا سابقاً، فإن هذه الأفكار، يعرضها البونى بشكل تلميحى يغلب عليه الغموض.

فهو يذكر أحياناً مفاهيم مثل «العقل» و «النفس» للإشارة إلى الظهور الأول للكائنات، كما نجده يستخدم كثيرًا مصطلحات مثل «العرش» و «الكرسى» وفى بعض الفصول يتحدث عن عالم الجبروت وعالم الملكوت، دون أن يوضح إلى أى مستوى أنطولوجى يشير.

ففى أحد الفصول الطويلة (ص١٧) يبين البونى أن الأصل للكائنات فى حالتها المجردة هو العرش:

١- الكرسى الواسع وهو فيض النور الثانى الذى يحتوى على منشأ الموجودات.

٢- الكرسى الأعلى وهو فيض النور الثالث حيث ينبثق جوهر الكائنات.

٣- الكرسى الأبهى وهو فيض النور الأول حيث تتوقف مقدرات الأشخاص.

إن مجموع هذه المنازل يمكن توضيحها بالجدول التالى:

عالم الاختراعات أو الخلق	العقل	العرش	الجبروت
		الكرسى الواسع	الملائكة
عالم الإبداع أو مرحلة خلق	النفس	الكرسى الأعلى	الملكوت
شكل الكون		الكرسى الأبهى	الملكوت
		الأفلاك	

وعلى الرغم من هذه الإيضاحات، إلا أن الإثباتات فى «شمس المعارف» تفتقر إلى التماسك والترابط. فأحياناً، نجد المؤلف يذكر أن العقل البشرى يدل على العرش وأحياناً أخرى يقول إنه يتوافق مع عالم الملكوت، كما أنه يربط بين الروح البشرية والروح الكونية فى عالم الجبروت. فالمصطلحات المستخدمة لا تخضع لنظام ثابت فحسب، بل إن عملية تشخيص الموجودات لم يتم وصفها بوضوح. فكيف يحدث فيض العناصر والأشخاص من الكائنات الأصلية؟

يشير البونى، فى هذا الشأن فقط، إلى وجود منطقة برزخية فى الوجود تفصل بين العوالم العلوية والسفلية. وهذا لا يوضح إلا جانبًا واحدًا من السؤال. أما فيما يتعلق بالعلاقة التى تربط العلويات بأفلاك النجوم، وهى علاقة جوهرية فى الممارسات السحرية، فإن البونى لم يحاول إعطاء أى إيضاحات ولو قليلة حول هذا الموضوع.

بيد أن المنطق الباطنى لفكر البونى، والذى لاحظنا وجود خلل به لاسيما فى تناوله للمفاهيم الفلسفية التى تتعدى فيما يبدو قدراته، يظهر بوضوح فى تحليله لعلم الحروف.

يوضح البونى ص ٥ أن حرف الألف هو أصل الكون، فهو أول الحروف وأول مخلوق ومنه نشأ حرف الباء ثم من الألف والباء نتج حرف اللام ثم باقى الحروف الهجائية وهى ثمانية وعشرون حرفاً غير لام ألف وهى تمام التسعة والعشرين، وفى هذا المستوى تكون الحروف فى حالة ثبات لأنها لم تبلغ بعد فنون الحركة، ولكن عندما تمتزج فيما بينها تكوّن أسماء الله الحسنى وعددها ٩٩ اسماً، ويقول البونى فى ذلك: «فالألف حرف قائم منه نشأت الحروف ومنه تنشأ وهو ملاكها فهو نظيره العقل والعلم والعرش واللوح وثلاثة اللام وهو الحرف الواصل من الأدنى والأعلى ونظيره اللوح والكرسى والنفس وبعد اللام الميم وهو حرف دال على التمام ونظيره الجسم؛ فالعقل أول مخلوق والجسم إنما هو للمخلوقات وسائر معانى الحروف داخلة فى الألف والألف مبنى الجمع والإجمال كما أن الحروف مجملة فى العلم». ص٥٩

وتلعب الحروف النورانية فى علم الحروف دورًا أساسيًا ومحوريًا وعددها أربعة عشر حرفًا، وهى عبارة عن حروف ساكنة تفتتح بها ٢٩ سورة فى القرآن، وعن هذا الدور يؤكد البونى قائلاً:

«قال عليه الصلاة والسلام: إنما قام الوجود كله بأسماء الله تعالى الباطنة ثم الظاهرة المقدسة وأسماء الله تعالى المجمعة

الباطنة أصل لكل شيء من أمور الدنيا والآخرة وهى خزانة سرَّه ومكنون علمه ومنها تفرع أسماء الله تعالى كلها وهى التى تقضى بها الأمور وأودعها أم الكتاب». ص٥٩

إن فيض الكائنات من الحروف يتبع من جديد، كما نرى، اتجاه الفلسفة الأفلاطونية الحديثة مع إضافة مرونة التركيبات الحروفية الخاصة بعلم الحروف. إلا أننا نلحظ فجوة فكرية بين الاثنين، فالأسماء فى كتاب «شمس المعارف» ليست هى التى تعبر عن الأشياء فى الكون بل الأشياء نفسها هى التى تظهر اللغة الكونية الإلهية فى الكون بشكل ملموس، ويقول البونى فى فائدة الأسماء:

«عدد درج الجنة منها انفصل العلم وإليها يرجع وعنها ظهرت الموجودات، والموجودات آية دالة على الأسماء الحسنى». ص٥٨. فالكلمة إذن هى أساس الواقع الخارجى وليس العكس.

لقد استخدم البونى علم الحروف لوصف العالم بمستوياته المختلفة إذاً ففى الفصل الأول من «شمس المعارف» يقسم الحروف إلى مجموعات رأسية، فالعرش له حرف الألف والكرسى له حرف الباء وزحل له حرف الجيم وهكذا حتى نصل إلى أفلاك العناصر الأربعة للعالم الأرضى.

ثم أضاف إلى هذا التوزيع الرأسى، تأملات تخص كل عالم من العوالم للتعبير عن ديناميكية أو حركة الأفلاك المعنية، وهى أوفاق تكون إما على هيئة مثلثات أو مربعات عددية يصف بواسطتها الخصائص الثابتة والساكنة لكل مستوى من مستويات الوجود على

حدة. ولقد ساعدت مرونة اللغة الحروفية، المؤلف، للتعبير بصورة شاملة ومبسطة عن العمليات الكونية الأكثر تجريدًا.

ولهذا، ومن أجل وصف العلاقة التى تربط الظواهر الكثيفة أو المحسوسات بأصولها، لجأ البونى للعلاقة بين الأعداد والحروف باعتبار أن العدد هو المقابل الجسدى الكامن للحروف، وعن هذه العلاقة يقول: «اعلم أن أسرار الله ومكنون علمه والكيانات الكثيفة والمحسوسات العلوية والأرضية والملائكة تنبع من شيئين: الأعداد والحروف؛ فسر الحروف يكمن فى الأعداد وأصل الأعداد فى الحروف، فالحروف تحكم الروحانيات العلويات والحروف والأفلاك الجسمانيات والملائكيات. وسر الكلام فى الأعداد وسر الأفعال فى الحروف فالأعداد تشكل العرش أما الحروف فتشكل الكرسى ...».

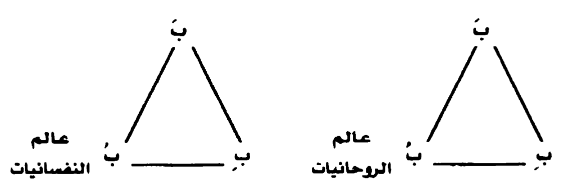
وهكذا يظهر العلم الكونى للبونى فى تناوله لعلم الحروف بشكل أوضح مما كان عليه عند استخدامه للمفردات الفلسفية؛ فالانتقال من الفكرة إلى الشكل ومن القوة إلى الفعل الذى لم يكن واضحاً فلسفيًا، عبر عنه البونى بالصورة والتى قام بتطبيقها بشكل مباشر فى الممارسات السحرية التى تعتمد بصفة أساسية على عملية تحويل الحروف إلى أعداد والعكس.

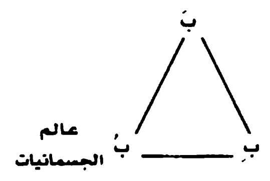
إن التوازى بين مختلف فئات الحروف وتكوين الكون قد أتاح للبونى الإمكانية لإقامة مقاربات ووضع مقدمات يشرح فيها تصوراته ومفاهيمه، ففيما يتعلق بالشهادتين. قام البونى بتوزيع الحروف والكلمات على أساس التعارض الزوجى بين النفى

والإثبات فهو يقول ص٧٤: «لا إله إلا الله دائرتان نفى وإثبات فدائرة النفى (لا إله) تقابل دائرة الإثبات (إلا الله)».

ويمتد هذا التقسيم ليشمل كل الفضاء والأزمنة والفصول والليل والنهار وحتى ساعات اليوم الواحد يحكمها هذا النظام المزدوج والمكون من عاملى النفى والإثبات والذى تتفتح معه رؤية كونية كاملة يلعب فيها العلم الملائكى دورًا محوريًا.

وإلى جانب ذلك، فهناك المستويات الثلاثة للوجود فى عالم الروحانيات والنفسانيات والجسمانيات بواسطة علامات التشكيل. فكل حرف له ثلاثة مقامات بحسب الحركات الثلاث الضم والفتح والجر وحروف المد واللين وكل واحد من الثلاثة جسمانى وروحانى ونفسانى وعددها تسعة. فإذا أخذنا حرف (الباء) كمثال يكون الآتى:





إن هذا التقسيم يتيح شرح عملية التماثل بين التكوين البشرى والتكوين الكونى بإيجاز مع اختصار شديد للمفاهيم ص٥٧.

وبعيدًا عن دور علم الحروف فى الشروح والإيضاحات، فإنه فى كتاب البونى أداة للاستنباط من أجل الوصول لاستنتاجات يمكن تطبيقها على التبادلات الكونية. فالحروف قد تم تصنيفها طبقاً لنظام خاص بعلم الحروف أى إلى حروف نورانية وحروف ظلمانية، ويزداد ثراء هذا النظام عندما تمتزج الحروف برموز أخرى ولاسيما علم الفلك.

فالحروف العربية يتم تقسيمها طبقاً للمنازل قمرية والمجرات الفلكية والنجوم وحتى ساعات الليل والنهار. وتشير العلامات الفلكية إلى تقسيمات فضائية (بلاد العالم والاتجاهات الأربعة) أو إلى تصنيفات فى العلوم الطبيعية والطب. فالحروف الهجائية وعددها ٢٨ حرفاً أصبحت مقسمة إلى أربع مجموعات، تحتوى كل مجموعة على سبع حروف فهناك حروف حارة وباردة ورطبة وأخرى يابسة. لقد تحولت كل المعرفة البشرية فى "شمس المعارف" إلى شبكات من التبادلات يعبر عنها علم الحروف، مما مكن المؤلف من تكوين أوفاقه السحرية وعزائمه والطلسمات التى تحقق الأهداف المرجوة لطالبها.

ونلاحظ هنا، وبشكل علمى ومباشر، أثر لإحدى الاتجاهات الحدسية لجابر بن حيان الذى كان يرى فى دراسة الحروف

والأعداد بواسطة «ميزان الحروف». المرحلة السامية للمعرفة الإنسانية أثناء بحثها الكونى.

وأخيرًا، فإن علم الحروف قد أتاح للبونى التعبير عن التماثلات بين العوالم فها هو يقول:

«فلزحل فى العلويات حرف الجيم والأعداد الواقعة عليها ثلاثة على الجملة. وأما على التفصيل فثلاثة وخمسون هكذا الميم بأربعين والياء بعشرة والجيم بثلاثة، وهو أيضاً بثلاثة أحرف وله من السفليات حرف الصاد وهو فى العدد تسعون وتلك فى العلويات على خمسة وهو حرف الهاء وله من الأوفاق المخمس» ص ٥.

ولأول وهلة، قد يبدو من الصعب التعليق على الفقرة السابقة نظراً لإيجازها الشديد وهى السمة التى تميز فكر البونى، فهناك انطباع بأنه يسترجع مرة أخرى التكوين السباعى للأفلاك السماوية فى مختلف المستويات الروحانية والنفسانية والجسمانية. غير أنه من الأرجح أنه يرى أن التكوين السماوى نفسه والذى يمثل كوكب زحل نموذجًا له، يتفاعل إما بواسطة الصلة التى تربطه بالكيانات العلوية فى عالم الجبروت والتى يشار إليها هنا بالآحاد (٣) أو بواسطة علاقته بعالم النفسانيات فى عالم الملكوت والتى تدل عليها أعداد العشرات وهو هنا (٩٠).

فإذا كانت الطاقة الخارجة من العوالم العلوية نحو كوكب زحل تترجم بالانتقال من العدد (٣) إلى العدد (٩٠)، فإن التحول

التصاعدى لهذه الطاقة، عند ممارسة السحر، سينتقل من (٩٠) إلى (٥). فوصف الوظائف المتعددة لعنصر واحد فريد فى الكون، وهو هنا كوكب زحل، يتم فى فكر البونى فى بعض جمل موجزة نستشف منها رؤيته المعقدة عن فنون السحر؛ فوظيفة كوكب زحل، فى هذا المثال، تنعكس على عالم الجسمانيات، وتلك هى أحدى السمات المميزة لعلم البونى الكونى. فالمعطيات الميتافيزيقية المعقدة والمجردة تنعكس فى شكل شروح وعمليات سحرية تطبيقية.

«كل لطيف، كما يقول البونى، عرش وكل كثف كرسى ولا يبعد أن يكون الكرسى هو الحامل للعرش (...) لأن كل لطيف قائم بكل كثيف ولذلك كانت الألف أخف الحروف». ص٦٣

وسريعًا ما نجد البونى يستخدم ميتافيزيقية العرش مجددًا فى عرضه لسحر الحروف، وهناك ملحوظة أخيرة عن هذا العلم الكونى تتعلق بعلم الملائكة الذى نجده فى «شمس المعارف» يتخلل جميع معطيات رؤية البونى عن العالم وعن الممارسات السحرية. فاستخدامه لعلم الحروف لا يقتصر على عملية توفيقية فكرية ومجردة، بل يدل على كون إحيائى متسع الأبعاد. إن العزائم السحرية التى يعرضها البونى لا تخضع الجن والملائكة السفلية فحسب، بل إن كل حرف فيها ملاك فى حد ذاته، فالألف، كما سبق أن ذكرنا، هو ملك كل الحروف (ص٥٩). فمخزون الطاقات السماوية المتجهة إلى الأرض يظهر فى شكل أسراب ملائكية متوالية تنزل حتى المستويات الأرضية الأكثر كثافة، ويتمثل السحر

التصريفي فى كتاب البونى فى شكل طرق ووصفات موجهة إلى المدركات من الكائنات من أجل إخضاعها وتغيير أفعالها. فاستحضار طاقة الرياح والجهات الأصلية، على سبيل المثال، تكون لتوجيه كيانات مدركات، مما يعطى للإنسان قوه ظاهرية فريدة على كل الخلق بما فى ذلك العوالم العلوية.

وتقودنا دراسة علم الحروف بالضرورة إلى القضايا المتعلقة بالتصوف والروحانيات؛ فالتقارب بين هذين الاتجاهين يمكن أن يصدم أى مسلم متشدد. فلقد استنكر العديد من الكُتَّاب المشهورين الجانب الصوفي فى كتاب البونى عن السحر الأبيض، كما اعتبروا البونى نفسه زنديقًا يتخذ من الصوفية قناعًا ليخفى وراءه ممارسات الشعوذة السحرية، ولكننا نرى أنه قد حان الوقت لتصحيح هذا الحكم وذلك من أجل الفهم الجيد للاتجاهات الفكرية لعلماء السحر من العرب.

إن الهدف من وراء الممارسات السحرية فى كتاب «شمس المعارف» هو بالطبع هدف نافع موجه إما لأمور دنيوية أو لاكتساب منافع دينية بواسطة الطرق السحرية أكثر من الزهد والتصوف. ولكن أليس عملية ربط البحث الروحانى بالزهد، هو غلق الفكر التحليلى داخل إطار من الأفكار المسبقة.

إن السحر الأبيض التصريفى فى «شمس المعارف» يعرض، كما يبدو لنا، رؤية تختلف تماماً عن رؤية المتصوفة الزهاد أو الصابئة الخفيين.

فلنبحث معًا هذه المسألة عن قرب.

هل نستطيع فى المقام الأول التأكيد بأن الهدف الدينى فى كتاب البونى قد ابتعد بالفعل عن ممارسات الصوفية التقليديين؟ الإجابة على هذا السؤال ستكون موضوعية، فنحن لا نستطيع أن نميز أية فجوة حقيقية فى الفكر بين الاتجاهين، فهناك العديد من الفصول فى «شمس المعارف» تؤكد وجوب الالتزام بطهارة الجسد والنفس لبلوغ أسرار الكنوز الباطنية، وهناك فقرات كثيرة تحض على عدم كشف أسرار العلوم الباطنية لمن هم ليسوا أهلاً لها (ص٣). وفيما يتعلق بمراحل الحب الإلهى الذى يبدأ بالمحبة ثم الود ثم العشق حتى الوصول إلى أسمى درجات الحب مما ينتج عنه صفاء القلوب والذى يؤدى فى النهاية إلى بلوغ العقل منزلة الحكمة والفضيلة (٦-٨)، يستخدم البونى لوصف هذه الخطوات لغة خطاب، نستطيع أن نجد نظيرًا لها فى كتب الصوفية سواء المعاصرين أو القدامى، فمناخ الورع والتقوى واحد فى الاثنين.

وكمثال على ذلك يقول البونى فى الفقرة التالية: «إذا أردت أن يظهر الله لك لوامع مقامك فانه الجوارح عن الكسل والنفس عن الملل والعقل عن الجدل والقلب عن الزلل والروح عن الأمل والسر عن رؤية العمل ونسبة الحال والمحل» ص١٢٧ .

إن هذا البحث عن الحقيقة الإلهية المنزه عن أى غرض، وهذا الأمر بوجوب اتباع الطريقة، يتخلل فكر البونى مطالباً بعدم

الاستسلام للإغراءات التى تحث عليها النفس بالسعادة والدهشة، والمضى فى طريق البحث عن الله دوماً ودون توقف؛ لأن ذلك يزيل النفع والفائدة المرجوة، بهدف بلوغ المراتب العليا للتوحد، إن هذا الحديث لا يعبر عن تقوى زائفة أو تصوف منقوص، بل حاجة روحانية حقيقية إلى السمو والوصول إلى الروحانيات العليا.

بيد أن هناك فصولاً وفقرات أخرى فى «شمس المعارف»، تظهر جانب آخر من تعاليم البونى، حيث يتضح اهتمامه بفاعلية الأوفاق والعزائم السحرية التى تطمس الجانب الروحانى والاتجاه إلى الاستسلام التام للإرادة الإلهية للفوز بالرحمة والتوفيق الإلهى.

ونستنتج هنا نقطة مهمة وهى أن الأوساط الدينية والاجتماعية التى قرأت كتاب البونى ومارست طرقه بإخلاص وخشوع لم يبحثوا فيه عن نمط من الولاية التى ترتكز على اعتزال تام لأمور الدنيا. فالولاية، طبقاً لمنظورهم، تعتمد، قبل كل شىء، على اكتساب نوع من السلطان يكون مفتاحه كشف أسرار العلوم الباطنية ولاسيما علم الحروف، إن هذا البحث عن (البركة) يرتبط برؤية الإنسان وحالته النفسية والروحانية وهى التى طالما تحدث عنها البونى فى مختلف فصول كتابه، فهو يشير أيضاً إلى أن الإنسان، فى حالته الحاضرة، يكون مزيجاً من الخير الخالص وهو فى هذا يكون شبيهاً بالملائكة، كما أن به شرًا خالصًا من طبيعة الكفر والشرك الذى يفصله عن العالم الإلهى.

وفى موضع آخر، نجده يصف أعضاء التفكير التى تتفق كل منها مع أحـدى تجـويفـات القلب وفى ذلك يقـول: «القلب له ثلاث تجويفات»:

- إحـداها فى أعـلاه مما غلظ منه وهو مـحل الإسـلام ومـعـانى الحـروف وهو أيضـاً مـحل القـوة الناطقـة فى الإنسـان المدبرة لمعـانى الإرادة المنبـعـثـة من النفس وتلك هـى الدرجـات الأولى للوحى.

- الثانية فى وسط القلب وهـى محل التفكيـر والتذكر وهـو مـحل السكينة ومحل الخيال ومحل اشتعال حـرارة العشق حيث يصل الوحى إلى درجة كبيرة من الدقة والاتساع.

- الثالثة وهى الفؤاد وهى أرقه وألطفه وهى محل الإيمان والعقل والنور وميزان العقل والتصرف والأسرار ولطائف الحكم ومحل حب الحـيـاة الطبـيـعـيـة بواسطة روح الأمـر، فـأرواح الوحى فى كتاب الله ثلاث: روح الأمين وروح القـدس وروح الأمـر ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ (سورة غافر آية ١٥).

وقد أنعم الله على نبيه محمد بصفاء الفؤاد، بيد أن كل إنسان مؤمن دءوب يستطيع أن يطمح بلوغ هذا الصفاء».

ولنا على هذا التقسيم ملاحظتان: الأولى تتعلق بأهمية المعرفة والفهم لبلوغ منزلة الولاية. فطهارة القلب صفاؤه ليست هنا فضيلة

أخلاقية بقدر ما هى تصاعد للمعرفة الباطنية لأسرار الحروف التى تمنح الصوفى السلطان اللازم للمضى فى طريقه نحو العوالم العلوية. إنها عن حق رؤية باطنية حتى إن كانت الطرق السحرية تحتل فيها موضعًا كبيرًا.

ومن ناحية أخرى، فإن هذه المعرفة الباطنية لا تُكتسب من الكتب أو بالنقل ولكن بالوحى والإلهام الذى يأتى من العوالم العلوية أى من الله نفسه، يؤكد البونى ذلك قائلاً: «هذا ليس بعلم صحف وإنما هو مخصوص بين العبد وربه» ص٥٩. إن هذه الرؤية الباطنية لها بالطبع نتائج عظيمة تتضح فى المفاهيم الدينية التى تعج بها فصول «شمس المعارف».

إن مفهوم البونى عن المضى قدمًا فى طريق الروحانيات يظهر وبجلاء فى وصفه للولاية والنبوة، فالتميز الذى يختص به الأنبياء والأولياء على كافة البشر يرتبط بمعرفتهم بعلم الحروف، وهناك ثلاثة أسباب لهذا الاختصاص:

١- الأول «أنهم فهموا معانى الأسماء التسعة والتسعين اسمًا بتأييد وإلهام ما لا يعلمه غيرهم بالنظر والبرهان». وهذه أولى الخطوات فى المعرفة الباطنية. «فهم علموا أسماء باطنة وراء هذه التسعة والتسعين» أى أنهم امتلكوا علم «الحروف النورانية» الأربعة عشر.

٢- «أنهم اختصوا بالاطلاع على الاسم الأعظم» سواء بنور الوحى أو بالإلهام أو بواسطة الخضر عليه السلام، وتلك هى المرحلة الأخيرة من المعرفة الباطنية التى عندما يبلغها الولى يستطيع أن يطوى الأرض طياً أو يمشى على الماء أو يطير فى الهواء أو تقلب له الأرض والأعيان إلى غير ذلك من الكرامات التى اختص الله بها الأولياء.

٣- أما الأنبياء فقد اختصوا بعلم يفوق علم الأولياء وهو علم اسم الله الأعظم الذى عرفوه ليس بمرور الزمن ولكن أوحى إليهم بالإلهام المباشر، وفى هذا المجال، يولى البونى اهتمامًا كبيرًا برجال الغيب فيقول: «إنه سبحانه وتعالى له رجال هم رجال الغيب» ولاسيما الرجل الجامع وهو رجل يقال له الغوث الفرد الجامع القطب، و فى ذلك يتفق البونى بشكل ملحوظ مع المفاهيم الشيعية الصوفية لعصره.

ومن الجدير بالذكر، أن البونى يدمج هذه العقيدة بالتأملات السابقة عن علم الحروف: فهؤلاء الرجال الجوامع عددهم، طبقاً لرؤيته، تسعة وتسعون مما يتضح منه أن رؤية البونى الصوفية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بعلم الحروف وبالتالى بعلوم السحر.

وفى هذا الصدد، يجدر بنا أن نلقى الضوء، بقدر المستطاع، على هذه الصلة التى تربط علوم السحر بالعلوم الروحانية فى «شمس المعارف».

إن رؤية البونى فيما يتعلق بالروحانيات ليست، كما سبق أن أشرنا، طريقًا يهدف إلى الزهد والتصوف فقد ذكر فى مقدمة الكتاب أن المقصود من هذا الكتاب هو تذليل الصعوبات لقرائه الذين يرغبون فى بلوغ إما المراتب العليا الروحانية أو الوصول إلى أهداف دنيوية مادية فها هو يقول:

«جعلت هذا الكتاب فصولاً ليدل كل فصل على ما اختاره وأحصاه من علوم دقيقة يتوصل بها للحضرة الربانية من غير تعب ولا إدراك مشقة وما يتوصل منها إلى رغائب الدنيا فيها» ص٣

ويبدو، فى الواقع، وبعد قراءة عدة فصول فى «شمس المعارف» أن بلوغ هذا العالم الروحانى فضلاً عن الأهداف الدنيوية يتم بهذه الوصفات السحرية الحروفية، إن هذه الممارسات تتعلق بالسحر بسبب تأثيرها الذاتى الفعَّال، فهى لا تخضع الجن والملائكة فحسب، بل تؤدى أيضاً ويقيناً، فى بعض الأحيان، إلى استجابة الله لمطالب مريديه، ويؤكد البونى أن النتيجة المرجوة من ممارسة الوصفات السحرية تتحقق حتماً بمشيئة الله عز وجل، وأن فاعلية هذه الأوفاق لا تختلف من حيث الجوهر عن تطبيق التقنيات والعلوم الأخرى التى تعتمد عادة على مشيئة الله مسبب الأسباب.

ولا يبقى سوى إن نقول أن الكلمة والطقوس السحرية لها، فيما يبدو، هنا تأثير منفصل عن الجهد الذاتى أو الاستعداد النفسى الداخلى للطالب.

إن معرفة الاسم الأعظم تمنح أيضاً البركة والخير لمن ينطق به حتى وإن لم يع تماماً ما فيه من أسرار إلهية، ويستشهد البونى فى «شمس المعارف» بمقولة تنسب للولى الزاهد إبراهيم بن أدهم الذى جاءه زائر يسأله عن تفسير «يس»[٦] فأجابه قائلاً: «هذه الحروف فيها اسم من دعا به أجيب بَّراً كان أو فاجرًا».

إن تعاليم البونى التى تهدف إلى اكتساب القوة والمشيئة الإلهية بواسطة الأوفاق الحروفية والطلسمات تتخلل، فى الواقع، جميع فصول «شمس المعارف» دون فرض أى شروط أخرى سوى أن يكون الطالب على طهارة دائمة أو أن يؤدى عددًا معينًا من الصلوات والركعات الإضافية أو أن يصوم بعض الأيام أو أن يتلو بعض الأدعية القصيرة.

وللوهلة الأولى، قد يرى البعض فى هذه التعاليم عودة إلى الوثنية أو نقضًا لتعاليم الإسلام الأساسية، إلا أن هذه النظرة يمكن تصحيحها أو تعديلها، لأن البونى إذا كان لا يربط ممارسة الطقوس التى من شأنها استحضار الجن والملائكة السفلية سوى بإخلاص النية والخشوع فى العبادة، فإن الأمر يختلف تماماً فيما يتعلق بالخطوات التى يقوم بها المسلم من أجل التقرب إلى الله، فى ذلك، يؤكد البونى أهمية محورية لمكانة الاسم الأعظم، فهذا الاسم يحتوى على أصل كل الأسماء الأخرى فهو كما يقول: «يخرج الأشياء من العدم إلى الوجود» ص٦٠. ومن يمن الله عليه بمعرفته فقد بلغ المستوى الأسمى للمعرفة الباطنية فيستطيع القيام

بمعجزات دنيوية وإذا دعا الله به يكون على يقين بأن الله سوف يستجيب له. بيد أنه لا وجه للمقارنة بين الصلة التى تربط الصوفى الذى يمارس هذه الطقوس السحرية بخالقه، وصلته بالجن وعالم الملكوت، وهناك روايات عديدة توضح الأسس التى يقوم عليها البحث عن الاسم الأعظم، فقد ذكر البونى فى «شمس المعارف» عبارة لفخر الدين الخوارزمى يقول فيها: «من عرف الله تعالى باسمه فى حاله ومقامه فقد عرف الاسم الأعظم المخصوص به» ص٦٠. وإلى ذلك يضيف البونى: «هذا الاسم كان ارحم الراحمين لأيوب عليه السلام حيث قال: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (سورة الأنبياء : آية ٨٣). كما كان الوهاب لسليمان عليه السلام حين قال: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ (سورة ص : آية ٣٥)

كما كان خير الوارثين لزكريا عليه السلام فأعطاه يحيى وأعطى سليمان ملكاً عظيماً وعافى أيوب من ثلاثة، فمن عرف الاسم المطابق للحاجة وسأل الله تعالى به أجابه وبلّغه مراده.

كما استشهد بأحد المشايخ «إذا دخل عليه تلميذه يريد السلوك أجلسه بين يديه وتلى عليه التسعة والتسعين اسماً وهو ينظر إلى وجهه عند ذكره للأسماء حتى يتبين للشيخ الاسم الموافق للتلميذ فيأمره بملازمته كالورد حتى ينفتح له منه باب لأن اسمه الوتر فيه وبه يقع التأثير فى كل أحد غيره» ص١٤٣ .

إن هذه الاستشهادات من شأنها توضيح وتحديد رؤية البونى حول الاسم الأعظم وما له من تصريفات خفية:

- من جهة، إن هذا الاسم الأعظم لا تتحقق قواه ومنافعه إلا إذا تحقق إدراك الإنسان لمعناه الحقيقى ووصل وبلغ مرحلة اليقين والإخلاص، فلكل إنسان اسم هو اسمه الأعظم ولكل مرحلة من مراحل السمو الروحانى اسم يلائم الحالة، فإذا جرى هذا الاسم على اللسان يتحقق للإنسان «الخير والبركة» حتى دون أن يعلم أنه اسم الله الأعظم، وهذا لأن الله هو الذى يجريه على لسانه، مما يتطلب أن تكون روح الصوفى ونفسه فى حالة من الإخلاص واليقين بحيث يتلاءم النطق مع حاله ومقامه.

 وندرك هنا، الفرق بين هذا النمط من المناجاة والابتهالات ونمط الأوفاق التى يتم بواسطتها إخضاع الجن وبعض الملائكة.

إن العلم بالاسم الأعظم يمنح الولى قوة يستطيع بها القيام بمعجزات، ولكنه لا يتحقق له ذلك، إلا عند هبوب الرحمة الإلهية على العبد وليس بالنقل، فهذه القدرة الخارقة، فى النهاية، لا تخصه، لأنها تنبع مباشرة من قدرة الله عز وجل على مخلوقاته.

- ومن جهة أخرى، فإذا كانت الوصفات والطرق السحرية تبدو موجهة لقضاء حوائج دنيوية قد تكون أحياناً منافية للأخلاق العامة مثل جلب المرض والقضاء على عدو إلخ، فإن فائدة

الاسم الأعظم ودوره الخفى يضىء بشكل مباشر الجانب الصوفى الروحانى فى فكر البونى.

إن فاعلية هذا الاسم الأعظم تتحقق بقدر طهارة وصفاء باطنية الصوفى، وبعبارة أكثر دقة، فإن قوة هذا الاسم تظهر بحسب درجة تخلقه بالصفات الإلهية، ويعنى ذلك أن الصوفى السالك كلما ردد الاسم الأعظم الذى يوافقه، كلما تخلق بصفته. ويحصل ذلك بالتجلى على كل وصف. ومما يدل على ذلك أن الشيخ أبا العباس السبتى (القرن الثانى عشر) والذى ظل يردد «الجواد» فى ورده اليومى اكتسب صفة اسم الله تعالى «الجواد» ليصبح اكثر أهل الأرض كومًا وجودًا فبالمداومة على ترديد العديد من الأسماء الحسنى، تتحول صفة المريد لتتخلق بصفة الاسم الإلهى ذاته، فالمعرفة بالاسم الأعظم تتلاءم مع المرتبة السامية التى بلغها الصوفى من التحول الباطنى والتى يتحقق معها التصريف الكلى لجميع الأسماء الحسنى للخالق والشفافية تجاه جوهره تعالى.

فالاسم الأعظم ليس، إذًا، مجموعة من الحروف أو المقاطع التى تتلفظ بها الشفتان ولكنه هنا، سر ظهور البشرية على الأرض. ويؤكد البونى هذه الفكرة بقوله الصريح:

«اعلم أن الإنسان هو الاسم الأعظم، فمن عرف نفسه، فقد عرف ربه» كما قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى: «جلست يوماً بين يدى شيخى عبد السلام بن مشيش. وكان له ولد صغير فوضعته فى حجرى ثم هممت أن أسأل الشيخ عبد السلام عن الاسم

الأعظم فـمـسك الطفل بذقنى ثم قـال لى يا عم أنت اسم الله الأعظم أو اسم الله العظيم فيك فقـال الشيخ قد أجابك الطفل فأفهم». ص١٤٤.

وإذا ما قمنا بمقارنة بين ما أكده البوني عن التصريفات الخفية للاسم الأعظم وبين مدلولها الروحاني، سوف ندرك المنطق الذى يربط بينها، فلقد خلق الله العالم بالكلمة وعلَّم هذه اللغة الخلاقة للإنسان﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (سورة البقرة آية : ٣١) ، ثم قام الإنسان بدوره باستخدام هذه الكلمة لتصريفها فى الكون.

بيد أن ذلك لا يجب أن يتم بشكل سطحى، أى أن يكون محصورًا فى البصيرة الإنسانية وحدها، لأن الإنسان مخلوق ذو تكوين أنطولوجى واسع، وعن ذلك يقول البونى: «إذا تأملت حقيقة الرحمة الإلهية اتسع لك الفضاء وأصبحت نفسك كلية الكون» ص٧٤.

وقد اعترف الصوفيون بعظمة الإنسان الذى يشكل خلاصة الكون والعين التى يتأمل بها الخالق لخلقه، ومن هذا المنظور يستنبط البونى هذه النتائج النهائية:

- إذا كان الإنسان يلعب دورًا عظيمًا لكونه خليفة الله على الأرض، وإذا كان الإنسان هو موضع العلم الإلهى فى الخلق، فإنه يصبح بالضرورة المستقبل للقدرة الإلهية على الأرض.

- إن القدرة التى يكتسبها الصوفى من ممارسته للطرق السحرية، لا يبلغها من النقل أى من التعلم الذاتى، وهو أيضاً لا يستطيع أن ينتزعها بواسطة الأوفاق والطلاسم السحرية؛ وذلك لأن هذه القدرة ما هى إلا جزء من القدرة الإلهية المطلقة وامتداد بل انعكاس للفعل الخلاق على الأرض. يقول البونى: «قال بعض العارفين بسم الله منك بمنزلة كن منه».

إن هذا العرض لكتاب «شمس المعارف» للبونى ليس الهدف منه هو الاستنتاج بأن هذا الكتاب ينطوى على رؤية صوفية أو فلسفية ذات أبعاد خاصة.

فهذا العمل سيظل، فى الأساس، رسالة عن السحر الأبيض النافع لإجابة أغراض دنيوية مثل الصحة والثروة والحب والصداقة والسلطة إلخ. ومن أجل تحقيق هذه الأهداف لا يزال القراء يتخذونه مرجعاً ومن أجلها ذاع صيته، بشكل يثير الدهشة فى العالم العربى الإسلامى.

إلا أن الطابع الروحانى لا يغيب أيضاً عن هذا الكتاب، فشمس المعارف يمثل تحديدًا التيار الصوفى الشعبى الذى يختلف عن الزهد والورع الصوفى المتعارف عليه بين كبار المثقفين، وفى هذا الصدد، لنا بعض الملاحظات الأخيرة:

- إن البحث عن المنافع المادية بما فى ذلك الثروة والسلطة والانتقام من الظلم، يظهر فى هذا الكتاب على أنه مطمح

طبيعى لا يشكل عارًا أو عائقًا فى الخطى الدينية الروحانية. فالله، كما يبدو بديهياً، يريد أن ينشر بركته وخيراته على عباده سواء فى الأرض أو فى السماء؛ لأن رحمته واسعة، والقرآن بالنسبة للمؤمن هو سر السعادة الكامنة وعن ذلك يذكر البونى: «اعلم وفقنى الله وإياك أن من فهم سر قوله تعالى: «وننزل من القرآن ما هو شفاء لظواهر الأجسام كما فيه الشفاء لحقائق القلوب». فاستخدام القرآن فى الأوفاق لا يختلف جوهرياً عن استخدامه لأهداف دينية صوفية، فالهدف فى كلتا الحالتين هو الحصول على بركات الكلمة الإلهية الفاعلة.

- ويتوافق هذا الهدف للحياة الدينية مع الفلسفة العامة للإسلام بمعنى أن المشيئة الإلهية واحدة ويقينية فى الاتجاهين، فعملية استحضار الجن والملائكة لا يمثل شركًا أو كفرًا بالله، لأن إخضاع عالم المحسوسات وبعض الكيانات السماوية لا يتم للإنسان إلا بقوة اسم الله الأعظم أو بقوة الآيات القرآنية أى بمشيئة الله عز وجل نفسه، أما هذه المخلوقات فهى ليست سوى وسيط أو شفيع بين الإنسان وربه المنزه عن التمييز والتعريف.

إن ممارسة الطقوس الدينية فى الإسلام مثل تلاوة القرآن لها بالتأكيد تصريفات وقوة خفية هائلة فى رؤية البونى، بيد أن هذه الرؤية لا تشكل سوى إضافة لإيمانه الراسخ دون حذف أو تغيير فى معناه الأصلى أو إضعاف لدوره الاجتماعى.

وخلاصة القول، فإذا كان السحر الحروفى للبونى يبعد غالبًا عن الاهتمامات الصوفية، فهو كذلك أيضاً بالنسبة للخطى الروحانية الصوفية لأن التيار الصوفى لا يرتكز فى مظهره على أمور السحر كما فى «شمس المعارف» ولكنه يتفق معه فى رؤيته الموحدة للعالم وللأشياء.

فعندما تعم البركة الإلهية على العالم لتغذى جميع ظواهره وتمنح الإنسان القوة والثروة والصحة، فهى أيضاً ترفع من القدرة السحرية وتحث على فهم الحقائق الباطنية، فهذه البركة هى المعبر الذى تعبر عليه الرحمة الإلهية.

ويكمن الاختلاف بين الباطنية من أمثال البونى وأصحاب العقيدة الإسلامية الرسمية، فى أن البركة فى عالم السحر سيل غير ملموس ولكنه فعَّال وحاضر فى العالم الأرضى.

وفى هذه النقطة، يتفق أيضاً الصوفية مع البونى، فعندما يعلم الشيخ تلميذه، فإنه يمنحه قوة ويفتح فى داخله باباً لفهم الأسرار الباطنية ويكون ذلك أشبه «بجراحة تتم فى الأعضاء الحساسة».

إن القارئ لكتاب «شمس المعرف» يكون أمام خيارين: إما الحصول على هذه القوة الكونية لتحقيق أغراض دنيوية، أو سلوك الخطى الصوفية، والقارئ هنا هو سيد القرار لأنه لا يوجد تعارض بين الهدفين الذين يختلطان فى أغلب الأحيان فى تركيبة تسمى الولاية.

إن هذه المعطيات التى تم استعراضها بإيجاز لكتاب «شمس المعارف» قد أتاحت لنا الفرصة لتقييم وبشكل أفضل لبعض المعتقدات الشعبية فى الإسلام التى التصقت بالتيار الصوفى فى القرن الثانى عشر، هذه المعتقدات التى تشكل مزجًا بين الزهد والاعتقاد القوى فى القوى السحرية، انتشرت فى الأوساط الريفية والمدنية على حد سواء وبشكل أقوى مما كنا دائماً نعتقد.

و لا تزال هذه الأفكار والممارسات راسخة حتى الآن ومنتشرة فى العديد من بلاد العالم الإسلامى، فمن الصحراء الإفريقية جنوباً حتى الشرق الأوسط شمالاً، لا تزال «شمس المعارف» للبونى تعد مثارًا لفضول القرَّاء الذين يداومون على قراءته، مما يدل على أن هناك بعض الأنماط الفكرية التى لا يزال القراء يتمسكون بها رغم كل ما حدث فى العالم من تقلبات ثقافية واجتماعية.

هوامش وتعليقات

١- صدر العديد من الطبعات الشعبية «لشمس المعارف» ولكننا لم نجد أية دراسة نقدية عنه. أما الطبعة التى استعنا بها فى هذه الدراسة فعلى الرغم من تواضعها، إلا أنها طبعة كاملة. مكتبة مصطفى محمد - القاهرة.

٢- شمس المعارف ص٣١٤ .

لمزيد من التفاصيل حول علم «الجفر» انظر الموسوعة الإسلامية الطبعة الثانية، مقال «ت فهد» بعنوان «الجفر».

٣- هُزِمَ الأمير جلال الدين خوارزم شاه على أيدى التتار فى عام ١٢٣١م ٦٢٨هـ بعد مقاومة طويلة وعنيفة. وفى الحقبة التاريخية نفسها لاقت دولة الموحدين فى الأندلس بعد أن تدهور حكمهم هزيمة شديدة على أيدى قوات النصرانيين الغازية.

٤- تدعى هذه التسمية دراسة نقدية جادة.

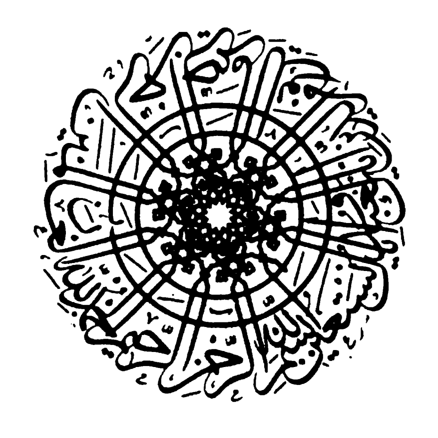
٥- راجع كتاب H. V Awinkler. بعنوان الإشارات والسمات فى السحر المحمدى ص٦٧ .

Siegel und Cbaraktere in dcr mubammedaniscben Zauberei.

.Munich, Moonchild Edition 16, 1980, p67

أيضاً كتاب ت.فهد بعنوان «السحر مصدر للحكمة فى أعمال البونى» ـ الشروق ٢٠٠٢.

٦- هذان الحرفان تفتتح بهما سورة يس التى يعتبرها المسلمون «قلب القرآن».



صورة الفاتحة بخط الثلث

الفصل السادس

ابن عربى

الجسد صار كلمة:

فى مقدمته عن الترجمة الفرنسية والإنجليزية لموسوعة ابن عربى الكبرى «الفتوحات المكية»، قدم Michel Chodkicwicz عرضًا رائعًا يتميز بالوضوح الشديد عن دور اللغة فى تكوين عقيدة الشيخ الأكبر(١). ولا يعنى ذلك أن نتوقع وجود فلسفة للغة بالمعنى الحديث للفظ، فلغة الخطاب فى «الفتوحات المكية» لم يتم تحديدها طبقًا للأنشطة والأنماط المتعددة للتعبير البشرى، لأن مكانة اللغة تقع على قمة جميع هذه الأنشطة نظرًا لأن وجود اللغة كان سابقًا على وجودها جميعاً. وتتضح هذه الرؤية فى استخدام ابن عربى للكلمة المكتوبة. فهو مثل كل الكُتَّاب العرب، يستعين بلغة قادرة على نقل الثقافة الدنيوية وفى ذات الوقت تستطيع التعبير عن لغة الوحى القرآنى ذات الأسرار الأبدية الخفية.

بيد أنه عند تناوله للقضايا العقائدية، يرفض ابن عربى استخدام مصطلحات لغوية موحدة ولاسيما المصطلحات الفلسفية. ففيما يبدو أنه لم يقترب بشكل كبير من مؤلفات كبار فلاسفة الأندلس فى ذلك العصر(٢). فبينما كان هؤلاء الفلاسفة يسعون إلى توحيد المصطلحات والصيغ المستخدمة فى مؤلفاتهم، وذلك باستبعاد الألفاظ الغامضة والمبهمة فى كل لغة، قام ابن عربى باستخدام مفردات لغوية ذات دلالة متعددة، تارة فلسفية وتارة تأويلية وتارة أخرى دينية عقائدية، وهى المتعلقة بفلسفة الكلام، إلا أن الطابع الغالب على مفرداته اللغوية هو الطابع الروحانى الصوفى. إن هذه القدرة على انتقاء المفردات اللغوية تولد ـ دون شك ـ أسلوبًا متميزًا وفريدًا يتسم بالمرونة وكثرة الإيحاءات وأيضاً قادر على سرعة التكيف مع موضوع العرض(٣). كما أنه لا يتبع أسلوباً موحدًا فى الكتابة، بل يقوم بتنويع الأسلوب ليتلاءم مع طبيعة الرسالة ومغزاها لدى مختلف أنماط القراء، ولكن على أن يتفق ذلك مع قاعدة فكرية مهمة وهى أن اللغة ليست أداة للتعبير فحسب بل هى التكوين الباطنى والشفرة التى تكشف للحقل الفكرى الواقعى جميع معانيه، فاللغة ستظل إذًا الملكة البشرية الوحيدة القادرة على القيام بهذا الدور.

إن العقيدة الكلية لابن عربى تتحصر، فى الواقع، فى رؤية لغوية للكون تلعب الكلمة الإلهية فيها دور القوة المانحة لما يلى:

- النفحة الخلاقة: فقد أنشأ الله الكائنات فقط بكلمة منه وهى أمر «كن».

- السند الأنطولوجية: لأن الكلمة الإلهية التى تظهر فى الأسماء الحسنى لا تشير إلى الحقيقة فحسب، بل تشكل الأعمدة التى قامت عليها العوالم الواحد تلو الآخر.

- النظام العام المنشئ لمجموع البنية الكونية وهى قواعد اللغة الكونية، لأن العالم ليس سوى نسيج هائل من الكلمات الإلهية.

لقد عرض ابن عربى فى كتابه تأملات موسعة عن الانبثاق الأول وخلق وتكوين المبدأ الأول الذى يحتوى على أصل جميع الموجودات وهو ما يسمى بالعقل الأول الكونى فى الفلسفة اليونانية. ثم ربط بين هذه التأملات والحديث الشريف الذى يقول فيه النبى : «خلق الله آدم على صورته».

فما هى هذه الصورة الإلهية التى يشير إليها الحديث الشريف ويطلق عليها دائماً «الحقيقة المحمدية» والتى تشبه شكل الإنسان بصورة خالقه؟

ويعرف ابن عربى هذه الصورة بأسماء الله الحسنى النابعة من النفحة الإلهية. وهذا يعنى أن المنبع الأصلى لكل الخلق، ذو طبيعة لغوية وأنه «سكن» النبتة الأولى لكل شئ ولاسيما الإنسان الذى تم تشكيله فى نهاية الكلمة[٤]، أى أن الإنسان وقدره ليس لهما معنى محدد فى ذاتهما ولكنهما يحملان فى طياتها المعنى الحقيقى لعملية الخلق.

وينعكس هذا المفهوم «البشرى اللغوى» للعالم، بالطبع، على تقديم ابن عربى للعلم الكونى الخاص بالطائفة الأكبرية التى تشبه تحديداً أصل الكون بدائرة هائلة تدور داخلها اللغة الكونية.

إن الصورة القرآنية التى تصف «القلم» الذى يكتب الأمر والإرادة الإلهية[٥] واللوح المحفوظ[٦] تمتد لتشمل الكون كله. فالأفلاك السماوية المنبعثة من انتشار الأمر الإلهى المنشئ «كن» يتولد عنها فى دورانها الحروف التى شكلت وأنشأت العوالم السفلية[٧]. فالكون يجب أن يُقرأ ويُفهم على أنه كتاب كبير، كل فصيلة وكل مجموعة من الكائنات تشكل فيه فصلاً خاصًا، فالبشر والملائكة والجن وجميع الموالد من حيوان ونبات ومعادن، جميعها ذات تكوين لغوى أى أنها مكونة من حروف، وكل تركيبة حروفية هى مفتاح السر لكل نوع من أنواع الموجودات.

بيد أن ابن عربى لم يتعمق فى تأملاته عن الرابطة الملموسة التى تربط تكوين اللغة بالحقائق مثلما فعل جابر بن حيان الذى اعتبر أن الاسم المتداول لأى معدن أو لأية مادة، على سبيل المثال، يعكس تكوينه الخاص وهو نسبة تكوين العناصر الأربعة فى داخله.

وانطلاقاً من أن الاسم هو الذى يعكس جوهر الشىء، فإن المعرفة الباطنية للكلمات يمكن أن تقود إلى اكتشاف التكوين الخاص للحقيقة[٨].

إلا أن ملاحظات ابن عربى تتفوق على جابر بن حيان من كونها تتسم بالنضج والواقعية وترتكز على تجانس عقائدى متماسك. ومما يدل على ذلك أنه لاحظ فى كلم الكتاب الكونى رابطة جدلية تنحصر فى ثلاث حقائق: ذات وحدث ورابطة وهى تشكل جوامع الكلم وتنعكس فى مختلف أبعاد اللغة الكونية[٩].

ولكن الإنسان لا يمكنه تأمل هذا التناغم لأنه هو نفسه منساق تماماً وكلية فى فيض الكلمة الكونية والتى يلعب فيها دور النص والقارئ، يقول ابن عربى فى ذلك: «أين هو ذاهب ذلك العبد، بينما هو ذاته أحد حروف ذلك الكتاب»[١٠].

إن هذه الرابطة الطبيعية بين ذات الإنسان والكتاب الكونى، تكشف بالطبع معناها الحقيقى لأن الإنسان بإمكانه أن يتعرف من خلالها على حركته الخاصة داخل الحركة الكونية. إلا أن هذه الرابطة قد تعرقل فهمه أحياناً؛ لأن المتأمل والقارئ لكتاب الكون لا يمكنه فهم الكتاب إلا بمقدار فهمه لذاته، وهنا يظهر الكشف الصوفى الروحانى الذى يعد الوسيلة الوحيدة القادرة على اكتشاف مفتاح هذه القراءة، ولهذا السبب كانت الاقتراحات فى كتاب «الفتوحات» أكثر مَن البيان.

ومما سبق يتضح أن التأملات حول دور اللغة يمكن أن ترشد الصوفى إلى إدراك حقيقته البشرية بشكل كامل وحركى.

فتقسيم الإنسان إلى ثلاث مراتب: الروح والجسد الكثيف الفانى والنفس الحية، ينعكس فى كل كلمة إما فى البديهة (الروح

والجوهر) وإما فى الكتابة (الجسد الفانى) أو فى اللسان (النفس والرابطة).

وبطريقة أخرى، فإن الإنسان يتكون من خطين: الأول ساكن (وهو الجوهر)، تتغير زاوية ميله طبقاً لتطور الإنسان، أما الثانى فحركى[١١]. وكل كائن يحمل معنى قد يظهر فى عالم الأنفاس كذلك فى العالم الكثيف الأرضى، ومن خلال النفس والجسد تتجلى التركيبة الإلهية لتسطر بالفعل الأوامر الإلهية التى تكون حتى هذه المرتبة فى حالتها الخالصة المجردة والكامنة.

إن هذه العقيدة التى سبق لهنرى كوربن أن أطلق عليها، عن حق، اسم أنطولوجية نظرًا لأن اللوجوس (الروح) أو الجوهر فيها هو أساس الوجود[١٢]، تعبر بقوة عن التناغم الذى يربط تسلسل انبثاق وظهور الأشياء فى الكون ولكنها لا تعتبر بياناً له.

فإذا بحثنا عن تعريف كلمة فى اللغة (مثل كلمة الجمال أو العدل) فإننا سنستعين بالضرورة بكلمات أخرى والتى بدورها لن تجد تعريفاً إلا بناء على كلمات أخرى إلخ. فالمعنى، باعتباره النواة الدلالية للكلمة المنفصلة، يظل دائماً صعب المنال.

وفى العقيدة الكونية اللغوية للطائفة الأكبرية، حيث لا تدل أيضاً الحروف المنفصلة على أى معنى محدد[١٣].

فكل لفظ يعكس معنى راسخًا فى الوجود ومتأصلاً مثل الجوهر الثابت. إلا أنه فى الكون حيث كل شىء لغة، فإن هذا المعنى لا

يشكل بعينه كياناً ذاتياً، فهو كلمة ولكن مجزأة، وبهذا الشكل فهو يدل بدوره على معنى آخر متعدد.

إن لجميع المخلوقات فى مختلف مراتب وجودهم علاقة نسب، ولا وجود لذاتية أحادية بين المخلوقات تنفصل فى تعريفها عن المخلوقات الأخرى، وحده الله هو المنزه عن أى تعريف، ومنه وإليه تعود جميع الروابط والصلات.

لقد رأينا مدى ارتكاز رؤية ابن عربى اللغوية الكونية على الوحدة الإلهية والتى يتم التعبير عنها بعقيدة التوحيد، فتعدد العلاقات هو انعكاس لوجود الله الواحد الأحد الذى لا يقهر، تماماً مثل العلاقات اللانهائية من الأعداد والتى تتلاشى فى النهاية فى الوحدة.

وبعيدًا عن هذه التأملات ذات الطابع الكونى، فإن هذه الرؤية عن دور اللغة تنعكس أيضاً على نشأة الإنسان وتكوينه، ففى الفصل الثانى الخاص بعلم الحروف فى «الفتوحات المكية» لا يعرض ابن عربى أفكارًا رمزية مبسطة كانت أو مبهمة بهدف حث وتنشيط خيال القرّاء، ولكنه على العكس، يقدم للقارئ المفاتيح لمعرفة ذاته والتى بدورها قادرة على فتح أبواب الفضاء الإلهى الواسع(١٤). ولكن فى مثل هذا الإطار حيث كل شىء فى نهاية الأمر كلمة، مع أى شىء تتطابق اللغة المتداولة سواء بالحديث أو الكتابة فى العالم الأرضى؟

فى العالم السفلى أى عالم الكثافات البعيد عن الأصول الثابتة المجردة حيث لا حدود للتعدد والتغير، تظهر هذه اللغة كشاهد على الوجود السماوى الإلهى، وانكسار لنور الأسماء التى علمها الله لآدم فى بداية الخلق كما ورد فى القرآن ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (سورة البقرة آية : ٣١) والتى تمثل المعرفة والعلم بها، تفوق هذا الكائن المخلوق من الطين على الملائكة.

فى هذا الفناء الواسع، تتطابق الكلمة البشرية مع انبثاق الأصول فى عالم الكثائف وتصبح انعكاساً لفكرة وجود معنى لكل شيء. إن هذه اللغة تمثل عالم الحركة حيث تتحد فى تسامٍ مع المراتب السفلية للوجود، ويصبح الجوهر الواحد والأبدى ذا مدلول واسم فى صورة خالصة ومتجانسة، كما يصبح الكشف يسيراً للحس والإدراك الواعى، ويكون استنطاق الكلمة دليلاً على وجود شبكات كاملة من الموجودات، وقد نتوقع أيضًا، أن تتمكن الكلمة السحرية، حتى بجوانبها النفعية والدنيوية، من التملق برؤية ميتافيزيقية سامية(١٥).

ومن البديهى أن يكون لهذه الرؤية نتائجها المؤثرة على طريقة استخدام اللغة إلا أنها لا تصلح للكلمات الدنيوية النفعية التى يتداولها البشر فى كل يوم، لأن هدفها فى المقام الأول هو الكلمة والوحى القرآنى بما يحمله من كلمات طيبات تصَّعَد إلى الله (١٦)

فى السماء لتسكن العوالم العلوية للكون، إن هذه الكلمات الطيبات هى تسابيح المؤمنين الذين يسبحون ليل نهار بحمد ربهم، وهى ايضًا ابتهالات الأولياء الصوفيين الذين يثنون على الله نعمته لأنهم على يقين من أن هذا الحمد هو من الله وإليه. إن هذا التصعيد لكلمات البشر التى تحمل الحمد والشكر لله، هو امتنان لنزول الوحى الإلهى إلى الأرض، فهذه الكلمات تبعث إلى السماء، فى دوران دائم، بأسماء الظواهر الكونية [١٧].

فهذا التلاقى بين الكلمة الإلهية عند هبوطها إلى العالم السفلى وكلمات الحمد والثناء البشرية عند صعودها إلى السماء، هو موضع الحياة والحكمة لأنه اجتماع الكائنات الملائكية التى تفصل بين تعددية العالم الأرضى والوحدة الإلهية.

ويقول ابن عربى فى ذلك: «فحيثما اجتمعت كان الملك ذلك الاجتماع»[١٨].

وسواء كان تجسيد الإيمان فى الإسلام يتم بتلاوة القرآن أو بنشر حلقات الذكر الصوفية، فإن ذلك إن يدل على شىء فهو يدل وبجلاء على الوعى بهذه النفحة الإلهية الساحرة الجليلة التى تنشر إرادتها فى جميع أركان الكون.

إن الهدف الأخير لهذا الخطاب الكونى هو تحول الإنسان إلى الصورة الأبدية التى خُلِق من أجلها وهى صورة الإنسان الكامل[١٩]. ففى هذا العالم حيث لكل مخلوق كلمة إلهية، يصبح دور الإنسان أن

يتحول ليصبح بالفعل كلمة الله التامة. «لقد صار الله للإنسان كتاباً، وعلى الإنسان أن يصير لله كلمة»[٢٠]. إن هذه العملية الطويلة من التحولات والتى تتم بحركة تبادلية بين النداء والجواب أشبه بضربات القلب، تسمح بإدراك المسلك الصوفى ليس كطريق معروف وممهد يؤدى إلى حالة دائمة وثابتة يجب بلوغها، ولكنه مثل الكشف عن الاسم الأعظم أو عن وجه دائم النضرة وهو ما قدمته لنا بتحفظ شديد «الفتوحات المكية»[٢١]. تلك هى إحدى الرسائل الجوهرية التى يهدف ابن عربى إلى نقلها[٢٢]. والتى يرجع الفضل فى ترجمتها بهذه الصورة الواضحة والدقيقة إلى Michel Chodkiewicz.

* * *

رمزية الحروف واللغة فى فكر ابن عربى

قد يبدو عنوان هذا الفصل مثيرًا لأتباع ابن عربى وقرائه المخلصين لفكره، فمفهوم اللغة وعلم الحروف الذى يعد تتويجاً لفكر «الشيخ الأكبر»، هى فى الحقيقة من الفصول الرئيسية فى «الفتوحات المكية» الأكثر تعقيدًا وغموضًا والتى قد تتطلب، عن حق، مجلدات من التحليل والدراسة المتعمقة. إلا أننى لم أكن أتطلع لتناول هذه القضية الضخمة بدراسة شاملة، بل كنت أهدف تحديدًا إلى عرض إطارها العام فقط مع تقديم بعض الإيضاحات المتواضعة، لذا فلسوف أقوم ببحث قضية اللغة من منظور العلاقة التى تربطها بأصل الوجود وبداية نزول الوحى ثم أتناول بعد ذلك دراسة الدور الروحانى للإنسان فى الكون.

إن رؤية ابن عـربى لأصل الكون والتى تتـضح بشكل كـبـيـر فى أعمـاله، تتصل بصورة وثيقـة بمفهـومه عن اللغـة، فـالفـعل الإلهى الخـلاَّق لا ينفـصل، فى رأيه، عن الكلمـة. فـهـمـا عـالمان للوجـود يربطهما نظام صلب ومتماسك الأركان. فلقد أنشأ الله فى الوجود مخلوقات لا نهائية التعدد بكلمة منه، وقد تحولت هذه المخلوقات إلى كلمات فى الخطاب واللغة الإلهية الواسعة ألا وهو الكون. إننا بصدد أنطولوجية حقيقية بالمعنى الدقيق للكلمة. نظرًا لأن الوجود يتطابق مع اللوجوس (الروح) أو الجوهر وفقاً لتعبير هنرى كوربن والذى سبق أن أشرنا إليه فى فصل سابق. سوف نستعرض الآن بإيجاز أهم الأفكار والمصطلحات فى العلم الكونى للطائفة الأكبرية.

الحرف المنشئ :

لن نتوقف كثيرًا عند هذه المسألة المعروفة والتى سبق أن تناولها بالتحليل كثير من الكُتَّاب ولاسيما Chittick عام ١٩٨٩. ولكننا فقط سنتذكر معًا أن الجوهر الإلهى، فى فكر ابن عربى، هو الواحد الأحد الظاهر الباطن الذى خلق الموجودات من العماء، وفى هذه المرتبة، كانت الكائنات فى حالتها المجردة الممكنة مثل الفكرة البسيطة فى العقل الإلهى وهى الحالة التى يطلق عليها ابن عربى اسم «الأعيان الثابتة».

فما الذى دفع هذه الكائنات المجردات إلى الخروج من هذه الحالة الممكنة إلى الحالة الظاهرة؟ إنها بالطبع الكلمة الإلهية التى

نادت الأشياء وأمرتها بالوجود، يشير ابن عربى إلى النظام الذى يحكم هذه الكيانات الظواهر «بالأسماء الحسنى». فنحن نقرأ وننطق بالأسماء، وهنا لا يجب تأمل الأسماء بمعناها المحدود فى اللغة البشرية، أما الأخرى فهى «أسماء الأسماء» وهى أنماط متعددة قد بعث بها الله الكون وأقامه على نظام وأسس محكمة. فهذه الأسماء تولد الطاقة اللازمة لخروج الأعيان إلى عالم الظواهر، كما أنها تشكل البنية العامة التى تخلق النظام والتجانس بين الموجودات[٢٣].

ويطابق اسم كل مخلوق فى ذاته الإرادة الإلهية التى أوجدته فى الكون، كما يتفق مع العلاقة التى تربط الجوهر بكل موجودة فى صورته المادية الخاصة به. فهذا الاسم، كما يقول ابن عربى، هو رب الأسماء؛ فهو يقسم الأسماء إلى أئمة (أرباب) وسدنة، كما يطلق على الأعيان الثوابت اسم أمهات الوجود. فهذا الاسم هو أصل فعل الوجود وخالقه الذى عليه عبادته واتباع مسلكه فى حياته الدنيوية، وقدر هذا الاسم الذاتى هو تحقيق الممكن الكامن فى جوهره[٢٤]. «فلكل حقيقة، كما يذكر ابن عربى، اسم ما يخصها من الأسماء، حقيقة تجمع جنسًا من الحقائق، رب تلك الحقيقة ذلك الاسم وتلك الحقيقة عابدته وتحت تكليفه»[٢٥].

إنها مسألة جوهرية كما يشير William Chittick قائلاً: «خلاصة القول (...) إن هذه الأسماء الحسنى هى فى حقيقة الأمر، اكثر المفاهيم أهمية فى كتاب ابن عربى. فكل ما هو إلهى

أو كونى يرجع إلى هذه الأسماء، ولا يمكن فهم أى شىء فى الكون سواء الجوهر الإلهى أو أكثر المخلوقات ضآلة إلا من خلال هذه الأسماء».

«إن كل كائن فى صيرورته يشكل حرفاً فى تكوين الخطاب الكونى الأعظم، وتحول الحرف من كيان كامن إلى كيان ظاهر فى العوالم يتم بفعل دوران الأفلاك»[٢٧].

لقد قام ابن عربى بمطابقة هذا التحول بشكل واضح مع «الصوت الإلهى» وعملية انبثاق الكلمة، فهذا الصوت الإلهى ليس مجرد تعبير مجازى، فهناك تماثل ثابت بين الخلق والكلمة البشرية، فلقد تمت عملية الخلق بواسطة النفحة الإلهية التى يطلق عليها ابن عربى «نفس الرحمن» والتى تربط الوجود الكونى بصورة أبدية وتجعل استنطاق الكلمات الإلهية ممكناً.

وعن نفس الرحمن يقول ابن عربى: «أعيان الكلمات الإلهية ثمانى وعشرون كلمة لكل كلمة وجوه تصدر عن نفس الرحمن وهو «العماء» الذى كان فيه ربنا قبل أن يخلق الخلق، فكان «العماء» كالنفس الإنسانى وظهور العالم فى امتداده فى الخلاء بحسب مراتب الكائنات كالنفس الإنسانى من القلب وامتداده إلى الفم، وظهور الحروف فى الطريق والكلمات كظهور العالم من العماء الذى هو نفس الحق الرحمانى فى المراتب المقدرة فى الامتداد المتوهم لا فى جسم وهو الخلاء الذى ملأه العلم»[٢٨].

إن هذا التماثل بين الخلق والكلمة يتم بشكل حركى، نظرًا لأن الخلق فى حركة ودوران مستمر مثل الخطاب فى تسلسله بين الجمل الواحدة تلو الأخرى، من هذا المنظور، يتم فهم رؤية ابن عربى عن الحروف وحركتها والتى يعرضها بوضوح فى الفصل الثانى من «الفتوحات المكية» وترجم أجزاء منها Denis Grill.

لقد ترك «الشيخ الأكبر» نماذج وصورًا كثيرة من التبادلات بين الحروف ومراتب الوجود والحركة فى الكون والتى لا تنفصل فيها الواحدة عن الأخرى، فاللغة هنا تلعب دورًا شبيهًا بالجبر الكونى. وهكذا يمكن تعريف «علم الحروف»، كما يقول Denis Grill على أنه علم اللغة الطبيعية المجردة التى تحدد مبادئ وأسس علم اللغة والعلم الكونى(٢٩). فتكرار الحروف يمكن أن يستخدم فى توضيح عمليات كونية منفصلة تماماً مثل الأعداد التى تستخدم فى أكثر من عملية حسابية متغيرة.

إن الحروف، فى رؤية ابن عربى لا تشير إلى معرفة محددة، لأن ما تحمله من دلالات ورموز يكشف الغمامة عن معرفة تعددية باطنية هائلة.

وفى الواقع، «إن الاسم له معنى وله صورة، فيدعى الله بمعنى الاسم، ويدعى الرحمن بصورته لأن الرحمن هو المنعوت بالنفس، وبالنفس ظهرت الكلمات الإلهية فى مراتب الخلاء الذى ظهر فيه العالم فلا ندعو إلا بصورة الاسم. وله صورتان عندنا من أنفاسنا

وتركيب حروفنا وهى التى ندعوه بها وهى أسماء الأسماء الإلهية وهى كالخلع عليها، ونحن بصورة هذه الأسماء التى من أنفاسنا مترجمون عن الأسماء الإلهية، والأسماء الإلهية لها صور من نفس الرحمن من كونه قائلاً ومنعوتاً بالكلام، وخلف تلك الصور المعانى التى هى لتلك الصور كالأرواح، فصور الأسماء الإلهية التى يذكر الحق بها نفسه بكلامه وجودها من نفس الرحمن وأرواح تلك الصور هى التى للاسم الله خارجة عن حكم النفس لا تنعت بالكيفية، وهى لصور الأسماء النفسية الرحمانية كالمعانى للحروف»[٣٠].

ومما تقدم، ماذا يمكننا الاستفادة من هذه المعطيات العقائدية؟ وكيف تعد مفاتيح الفهم والإدراك للمؤمنين تساعدهم على النماء الروحانى من أجل فهم حقيقة قدرهم؟

والإجابة على هذه التساؤلات يمكن أن نجدها فى الكلمة الإلهية أى الوحى القرآنى وهو فى متناول الجميع.

تطبيقات على التأويل

كيف تعمل تلك الرابطة التى تصل الخطاب الإلهى بالكلمة القرآنية؟

عن هذه المسألة يقدم لنا ابن عربى، بواسطة الإشارات، عددًا من الأمثلة فى علم الحروف الروحانى. ففى الفصل الثانى من الباب الثانى للفتوحات[٣١]، رسم إطارًا لعلم ميتافيزيقى خاص

بقواعد اللغة. وفى الباب ١٩٧، عرض تأملات سخية عن انبعاث حرفى الهاء والواو[٣٢]. هذا بالإضافة لتأملاته حول القيمة الباطنية لبعض الحروف ولاسيما الحروف المنفرده والعلاقة بين حرفى «الألف واللام»[٣٣].

ولكن إذا كنا نلاحظ أن تأملات ابن عربى عن المعنى الروحانى للحروف متأصلة وراسخة فى «الفتوحات المكية»، حتى أنه وضعها كمقدمة طويلة للكتاب، فذلك لأنها تلعب دورًا هامًا فعالاً فى طريق التحول الروحانى الذى لا يعد مجرد تأملات عقائدية، بل هو الهدف الأسمى لجميع مؤلفات الشيخ الأكبر.

فكل إنسان، فى حقيقته الأصلية، كلمة إلهية، وبهذا المعنى، فإن كشف المعنى الباطنى لأى لفظ أو أية آية، قد يقود الصوفى إلى فهم أحد جوانب وأحد أبعاد حقيقته الباطنية.

إن ذلك ينطبق بقوة على النص القرآنى؛ فالقرآن، نظراً لكونه الكلمة الإلهية الشاملة لاحتوائه على كل الحكمة الإلهية الكونية فى صورة كامنة، فهو نظير للإنسان، فالعالم الصغير يعنى الإنسان الذى يضم فى ذاته مجموع الظواهر الكونية، فلقد خلق الله مجموع الموجودات فى العالم على أكمل صورة وكان أول موجود فيه هو الحقيقة المحمدية. ومن هنا، ندرك أن القرآن وهذه الحقيقة المحمدية هما فى النهاية الحكمة الإلهية الشاملة، لقد كتب ابن عربى فى ذلك قائلاً: «إن الإنسان الكامل فى حقيقته الباطنية قرآن لا مثيل له نزل من الوجود الذاتى نحو وجود خالقه (....)

وصار فى الفلك الأدنى فرقاناً ونزل على أجزاء متفرقة طبقًا للحقائق الإلهية لما لها من تطبيقات وتأثيرات متعددة، وكذلك الإنسان فقد خلق من أجزاء متعددة(....) إن نزول القرآن حق كما أسماه الله عز وجل، إلا أن كل حقيقة دنيا تشتمل على حقيقة قصوى، والحقيقة القصوى للقرآن هى الإنسان» [٣٤].

ونظراً لأن تكوين الإنسان يماثل الكلمة الإلهية، فإن هدف الصوفى سيكون السعى إلى التطابق مع هذه الكلمة، فهو مكلف بأن يصير قرآناً، وعندما يصبح كلمة إلهية، حينئذ يكون مطابقاً لصورة الإنسان الكامل محققاً بذلك كماله الذاتى ومكتشفًا الاسم الخاص به.

ومن هنا، نفهم أن العلم الباطنى للقرآن ولاسيما علم الحروف الذى هو تكوينه، ليس مجرد تأملات من فكر ونظر [٣٥]فهذا العلم يضع الصوفى على طريق المعرفة الباطنية الروحانية من أجل القيام بعملية التحول الذاتى.

إن هذا المفهوم عن الحقيقة البشرية الكلامية يفسر تمسك العقيدة الروحانية الإسلامية بتلاوة القرآن والذكر، كما يتيح فهم سر الابتعاد عن فنون السحر الحروفى الذى اعترف ابن عربى فى «الفتوحات المكية» بفاعليته، إلا أنه حذر من مخاطر ممارسته. فمن خلال هذه الرؤية نستطيع أن نكشف فلسفة حقيقية لأصل الإنسان باعتباره فاعلاً متكلمًا.

إن تأمل الكلمة القرآنية ليس هو الطريق الوحيد أمام المؤمن لتأويل القرآن.

فإذا كانت اللغة أو الكلمة هى الأصل فى تكويننا وهى التى تنظم وجودنا وتتخللنا، فإننا بواسطة هذه اللغة، نستطيع قراءة واختبار الحقيقة التى تظهر فى كل لحظة داخل أنيتنا، فاللغة البشرية هى الوحيدة القادرة على ترجمة هذه الهوية الأصلية إلى حقيقة، إلا أن ذلك لا يتم بواسطة اللغة الدنيوية المتداولة بقدراتها المحدودة فى وصف أبعاد الحقيقة السفلية وليس الأبعاد العمودية الرأسية الكامنة فى كل الموجودات، فاللغة الشعرية المجازية والغنية بالشطحات هى فقط القادرة على القيام بهذا الدور.

والمقصود بهذه الشطحات، تجليات الصوفيين الأوائل التى تحدث عند بلوغ الصوفى مرتبة النشوى، فيفقد حينئذ السيطرة على خطابه مما قد يبرر المغالاة فى الشطح، وبين مئات الأقوال التى تركها لنا التراث الصوفى، نجد أن معظم الشطحات كانت بإرادة واعية ولكنها أدرجت ضمن التعاليم الروحانية.

ففى كتاب «اللمع» لأبى نصر السراج، يؤكد أبو يزيد قائلاً: «رفعنى مرة فأقامنى بين يديه وقال لى: يا أبا يزيد، إن خلقى يحبون أن يروك. فقلت: زينى بوحدانيتك، وألبسنى أنانيتك، وارفعنى إلى أحديتك، حتى إذا رآنى خلقك قالوا: رأيناك، فتكون أنت ذاك، ولا أكون أنا هنا»(٣٦).

فى رواية أخرى يقول: "أول ما صرت إلى وحدانيته، فصرت طيراً جسمه من الأحدية، وجناحاه من الديمومية. فلم أزل أطير فى هواء الكيفية عشر سنين، حتى صرت إلى هواء مثل ذلك مائة ألف ألف مرة، فلم أزل أطير إلى أن صرت فى ميدان الأزلية، فرأيت فيها شجرة الأحدية.

ثم وصف أرضها وأصلها وفرعها وأغصانها وثمارها، ثم قال: فنظرت فعلمت أن هذا كله خدعة[٣٧].

ومن هاتين الروايتين، يدرك القارئ أن أبا يزيد يعبر عن تجربة تعجز عن وصفها اللغة المتداولة الدارجة، لذا فقد لجأ إلى إضفاء صبغة شعرية على روايته يربط بين ألفاظها سجع موسيقى، ويغلب على صيغها المغالاة، إن مثل هذه الشطحات وما بها من جرأة، تجعلنا نتذكر للحظة، «الكوان»[٣٨] فى بوذية الزن.

وحول مسألة الشطح، كان ابن عربى متحفظًا ودقيقًا فى ذات الوقت. فقد استنكر بشدة الشطح، معتبراً إياه نوعًا من المغالاة التى تهدف إلى الفخر المذموم من المنظور الروحانى لأنه قد يؤدى إلى تضليل عامة المؤمنين. إلا أنه لا يرى أن هذه الأقوال خاطئة فى جوهرها، ولكن ما يستكره هو الخطر الذاتى الذى ينجم عن سوء فهمها من جانب المجتمع ولاسيما عامة الناس من غير الصوفيين. وقد قام، نفسه، بالتعليق على العديد من هذه الشطحات الخاصة بكبار السلف من النابهين المحققين مع عرض رؤيته العقائدية الخاصة.

فقد كتب، على سبيل المثال، تعليقاً مطولاً على رد أبى يزيد البسطامى عندما قيل له: كيف أصبحت؟ فقال: لا صباح لى ولا مساء، إنما الصباح والمساء لمن تقيد بالصفة وأنا لا صفة لى[٣٩].

وقدم أيضًا شروحًا مفصلة عن الشطحات التى نسبت إلى أبى يزيد والتى قال فيها: «أنا الله !» أو «العزة لى».

وفضلاً عن ذلك، فقد كتب نفسه بعض التجليات والتى لا تخلو من مغالاة على نهج سلفه من أمثال أبى يزيد والحلاج والشبلى.

وبين الأقوال التى ذكرها مرات عديدة الأبيات التالية والتى وردت فى مقدمة الفتوحات:

الرب حق والعبد حق ... ليت شعرى من المكلف

إن قلت عبد فذاك ميت ... أو قلت رب أنى يكلف[٤٠]

وهذه أبيات أخرى تتلاءم بشكل أفضل مع مسألة التحول للإنسان يقول فيها:

أنا القرآن والسبع المثانى ... وروح الروح لا روح الأوانى

فؤادى عند معلومى مقيم ... يشاهده وعندكم لسانى[٤١]

ويختلف موقف ابن عربى تجاه هذه الشطحات عن الصوفيين ممن عرفوا بشطحاتهم من أمثال «أبو يزيد» و «روزبهان الشيرازى». فهؤلاء يتمسكون بالفروق الكامنة بين المفردات العادية للعالم الأرضى الفانى واللغة الأبدية التى يتلاشى فيها عامل الزمن والمكان بصورة نهائية. فالشطح، من منظورهم، يمثل انشقاقًا

فكريًا، قفزات أو طيرانًا طبقاً للصور المذكورة، والتى لا يستطيع المحقق الحد من تدفقها. أما ابن عربى، فهو على العكس، يسعى لمزج اللغة الأرضية والأبدية فى بناء عقائدى مرن ومتنوع دون سقطات أو انشقاقات.

الإنسان الوسيط

قد يجد المؤمن الموحد بالله نفسه فى موقف لا يحسد عليه، فقد كُلِف بالكلام إلى الله باستخدام كلمات وعبارات تنتمى إلى العالم المادى الدنيوى والتى قد لا تتلاءم مع هذا الحوار الميتافيزيقى، فإذا كان الله سبحانه منزهًا عن المادة والتعريف فكيف لنا أن نتحدث عنه أو أن نصفه؟

لقد دارت معارك جدلية كثيرة بين أتباع العقيدة الإسلامية حول قضية قدرة اللغة على وصف الله عز وجل؛ فالقرآن قد أتاح للإنسان التعرف على بعض الصفات الإلهية بواسطة كلمات مثل «الغفور - الرحيم إلخ» والتى تتيح الحديث عن الله ومعه من خلال الشعائر الدينية، ولكن أيمكن للإنسان أن يذهب إلى أبعد من ذلك، أى أن يستعين باللغة بأكملها سواء حروف أو كلمات لكشف الصلة التى تربط الخالق بخلقه؟ لقد أنكر الحنابلة تلك الرابطة موضحين أن المؤمن يمكنه تلاوة أو نسخ النص القرآنى دون إضافة أية كلمات أو مفاهيم غير واردة فيه ولو كانت من قبل الاشتقاق أو التناظر.

أما ابن عربى، كما رأينا، فهو لم يغلق فكره داخل هذه الحوارات الجدلية الحرجة: لأن اللغة، فى رؤيته، ليست أحادية المدلول

واستخدامها لا يقتصر على المعانى الواردة فى المعاجم أو فى الإمكانات التى يتيحها علم النحو والصرف والبنية اللغوية. فاللغة تمتلك أبعادًا رأسية عمودية تعود إلى أصل الأشياء، لذلك فهى قادرة على التعبير عن التجربة الإلهية التى تدل على تناغم عملية الخلق دون المساس بتماسكها وتجانسها.

وفضلاً عن ذلك، فاللغة تمكن الإنسان من جهة من تسمية الأشياء وذلك بإرجاعها إلى الأسماء الحسنى لأنها جذورها وأصولها، ومن جهة أخرى يمكن للغة القيام بدور الوسيط الكونى الذى خلق من أجله آدم منذ بدء الخليقة ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (سورة البقرة آية ٣٢-٣٣).

فالصوفى يمكنه، بواسطة المعانى والأبعاد الباطنية العميقة للحرف، أن يطلق حروفاً وكلمات على جميع الأشياء التى تتعلق بالكون الكبير الكلى، وقد يصير بذلك سيدًا وحاكمًا لهذا الكون. فهو يتأمل ويفهم الجمل اللغوية الكونية التى تبث الحياة فى الكون وتتخلله كما تتخلل جميع المخلوقات، ومن هنا نشأ مفهوم «لغة الطيور» وحتى «إدراك الجماد». إن تفوق اللغة البشرية على لغات

الكائنات الأخرى فى الكون يماثل تفوق الإنسان نفسه على باقى المخلوقات، فكما أن الإنسان هو العالم الصغير الذى ينعكس فيه الكون، فاللغة البشرية هى الأخرى قادرة على منح مفتاح لكل ما يمكن قوله أو همسه أسفل السماوات التسع، وفى هذه المرتبة، تصبح اللغة البشرية هى انعكاس لأصل الكلمة الإلهية الخلاقة التى أنشأت ونظمت الكون.

ومن هذا المنظور، نستطيع أن نفهم بشكل أفضل هذه الرؤية التى رواها ابن عربى عن رابطة النكاح التى تربطه بحروف الهجاء. «أننى كنت ببجاية فى رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة فأريت ليلة أنى نكحت نجوم السماء كلها فما بقى نجم فى السماء إلا نكحته بلذة عظيمة روحانية، ثم لما أكملت نكاح النجوم أعطيت الحروف فنكحتها كلها فى حال إفرادها وتركيبها»[٤٢].

إن هذا التوحد الجسدى بحروف الهجاء يرجع إلى رغبة ابن عربى فى توحد ذاته مع العقل الإلهى الخلاق بحيث يصبح أحد هؤلاء الرجال الجوامع الذين تتحول بداخلهم الذات الفردية لتصبح امتداداً للإرادة الإلهية.

لقد تناولنا سابقاً رؤية المغيرة بن سعد التى تمثلت فيها الكلمة فى شكل جسد الله، فإذا قارنا بين المغيرة وابن عربى، نجد أن هناك تناقضًا كبيرًا بين الشخصيتين. فالمغيرة ينتمى إلى الطبقة الشعبية الدنيا فى المجتمع وانضم إلى حركات التمرد ضد حكم الخليفة التعسفى فى دمشق وفى النهاية لقى مصيرًا مشئومًا.

فمات ملعونًا ومصلوبًا. أما ابن عربى، فهو من أصل عربى وينتمى إلى عائلة عريقة من كبار مثقفى الأندلس، فقد ولد فى عام ١١٦٥م ٥٦٠هـ أى بعد المغيرة بخمسة قرون، وعاش فى عصر بلغت فيه العقيدة الإسلامية أسمى درجات النضج. وقد تشكل فكره من مزيج من العلوم الدنيوية والروحانية وتأثر فى شبابه بكبار شيوخ الفكر والقانون فى إسبانيا والمغرب.

وقد حظى بمكانة وشهرة واسعة فى جميع أرجاء العالم الإسلامى بسبب مؤلفاته العديدة ونبوغه الشخصى ولمعان فكره. وخلال أسفاره المتعددة فى الغرب ثم الشرق بدءًا من عام ١٢٠١ حيث استقر بصورة نهائية، استُقبل بحفاوة شديدة ليس من جانب الأوساط الصوفية فحسب، بل أيضاً من جانب الطبقة الأرستقراطية من العسكريين والأمراء فى ذلك العصر. أما بعض مظاهر العداء التى واجهته، فقد كانت فى إطار محدود للغاية ولم تدم طويلاً.

ولم يسع ابن عربى إلى المشاركة بأى دور فى الحياة السياسية حيثما كان. ولكنه أصبح إمامًا وشيخًا ذا مقام روحانى رفيع استطاع أن يؤلف حوله قلوب آلاف من المسلمين الورعين، وتحتوى مؤلفاته الباطنية على جوهر عقيدته الروحانية حيث يسعى إلى عرض لعلم إلهى ينبثق فيه عالم من الظواهر غير متناهية التعدد خارج الجوهر الواحد الكامل المنزه عن التعددية والوصف، كل ذلك بأسلوب متنوع ينم على فكر وقريحة متقدة.

ولا مجال هنا لعرض أركان هذا العلم الإلهى الذى يفرق فيه

هنرى كوربن بين انبثاق الظواهر خارج الذات الإلهية وداخلها حيث توجد الأعيان الكثيفة والمركبة، سوف نقوم فقط بالإشارة إلى الأعمال التى تناولت هذا الموضوع.

ولكن ما يعنينا فى هذا المقام، هو توضيح أن الجوهر الإلهى الأول والذى يطلق عليه الفلاسفة «العقل الأول»، يطابق عند ابن عربى الصورة الإنسانية الأولى وهى «الحقيقة المحمدية» التى تحمل بداخلها أصل كل الموجودات و «الأعيان الثابتة» لكل ما سيكون، فإذا كانت الصورة التى شُكل على أساسها الإنسان هى صورة الله أى النموذج المثالى لجميع الكائنات فى الخلق، فإن ذلك مذكور، كما يقول ابن عربى، فى العديد من كتب التراث، كما أكده الحديث الشريف: «خلق الله آدم على صورته». إن هذه الصورة الجامعة، تظهر فى كل إنسان ولكن بدرجة من الكمال متفاوتة، فهى بالطبع تصل إلى درجات عالية من الكمال فى الأولياء أكثر منها فى الإنسان العادى. أما النبى محمد، فهو يمثل أسمى درجات كمال الفعل فى البشرية جمعاء لأنه هو «الإنسان الكامل» وهذا ما يفسر إطلاق اسم الحقيقة المحمدية على الأعيان الأولى للموجودات. والتى أكدها الحديث الشريف الذى قال فيه النبى ﷺ: «كنت نبيًا وآدم بين الروح والجسد».

بيد أن هذه الحقيقة الأولية، هذا الأصل الأول لكل الكائنات، يطابق أيضاً القرآن ولكن ليس القرآن كما نزل للبشر على الأرض، بل «أم الكتاب». هذا الأصل السماوى الذى تحرسه الملائكة والذى

يحتوى على علم كل ما كان وكل ما سيكون أى علم الأول والآخر حتى نهاية الزمان. مما يفترض وجود تماثل كامل بين التكوين البشرى وتكوين القرآن.

وقد بيَّن ابن عربى هذا التماثل بشكل واضح، فقد ذكر أن الإنسان الكامل والقرآن أخوان وهو يستند فى ذلك إلى العديد من الأحاديث الشريفة مثل حديث النبى محمد الذى يذكر فيه أنه قد أوتى جوامع الكلم، هذا بالإضافة لقول السيدة عائشة رضى الله عنها الذى تشهد فيه أن «طبيعة الرسول هى القرآن».

ومما تقدم يتضح وجود علاقة وثيقة بين جسد الإنسان واللغة، إلا أن هذه العلاقة يصعب على الإنسان التعبير عنها، وحتى إدراكها. إلا أننا قد نجد مفتاحاً مهمًا لهذه العلاقة فى الباب الثانى من كتاب «الفتوحات المكية» لابن عربى، فى هذا الباب الغامض، يعرض ابن عربى العلم الرمزى لحروف الهجاء فى اللغة العربية وفيه تتمثل الحروف فى شكل أعداد ترمز إلى ظواهر وأبعاد العوالم الكونية، ويوضح ابن عربى أن هذه الحروف هى أصل هذه العوالم والتعبير الرمزى الأقرب لها.

وهناك فصل فى هذا الباب يعرض فيه المؤلف الحروف على شكل مجموعات لها قانونها وتصنيفها الخاص؛ وذلك لأن هذه الحروف ما هى إلا ملائكة مقسمين إلى مراتب محددة ومنظمة. وهنا تظهر الصلة بين شكل الإنسان وتكوين اللغة بمنظور مختلف. فإذا نظرنا إلى الحروف على أنها عالم من الملائكة ستصبح بالتالى

الحقيقة المحمدية مثلها مثل «أم الكتاب» أى قمة هذا العالم الملائكى الذى ينشر تجانسه الخاص على الكون كله حتى أقصى أبعاد العالم السفلى.

وفى ختام هذه التعليقات القصيرة، نكون قد توصلنا إلى فهم الأبعاد الكونية لمفهوم كلمة «كتاب» فى العلم الباطنى الصوفى. ونخطئ إذ نظن أننا هنا بصدد تأملات لأفكار مجردة أو لأفكار روحانية منفصلة. فالعبادات والفرائض الدينية الإسلامية جميعها متشبعة بهذا البعد المقدس للقرآن. ولنذكر مثالاً حياً على ذلك، هو أن المؤمنين فى أداءهم اليومى لصلواتهم الخمس، يقومون بتلاوة بعض الآيات القرآنية فى كل ركعة، تبدأ دائما بالفاتحة تليها بعض الآيات المختارة من سور القرآن. ولإقامة هذه الصلوات بطريقة صحيحة، هناك بعض الشروط الواجب على المؤمن تنفيذها لتصح صلاته، لأن عدم تنفيذ هذه الشروط يبطل الصلاة. أهم هذه الشروط هى الطهارة. فالمؤمن يجب عليه إتمام الضوء قبل كل صلاة. ولقد ذكر الرسول فى العديد من الأحاديث النبوية أن ملامسة الصلاة على نجاسة يطرد الملائكة التى تحيط دائماً بالمصلين أثناء صلاتهم. فوجود الملائكة، إذن، يتصل بشكل وثيق بالصلاة نظراً لأن غيابهم يبطل الصلاة ويفرغها من قيمتها الجماعية.

قد نستطيع فهم هذه المشاركة الملائكية لصلوات المسلمين بشكل أفضل، إذا ما لاحظنا أن الملائكة لا يصلون مع الناس فحسب، بل

هم أنفسهم سور وآيات وحروف القرآن الذى يقوم المؤمنون بتلاوته.

فتلاوة القرآن تصبح، إذًا من هذا المنظور، بمثابة النداء لهذه الكيانات الملائكية التى تمثل كل كلمة فى النص القرآنى.

إن تلاوة القرآن تنشر بهذا الشكل الوجود الملائكى دوماً فى العالم الأرضى مما يؤدى إلى نشر الخير على البشرية كلها، وهذا بالأحرى، ما يؤمن به الصوفيون السالكون للطرق الصوفية الروحانية، فبواسطة التعبد والتلاوة الدائمة للقرآن وشفافية الأرواح، يتمكن الصوفى من تحويل ذاته بشكل تدريجى، فهؤلاء الأولياء الذين تمتزج دماؤهم وأجسادهم بالقرآن «طبقاً لتعبير» ذى النون المتصوف المصرى المعروف، يتحولون ليصبحوا بشكل ما كتاباً، أى أنهم يندمجون تدريجيًا فى هذا العالم الملائكى الذى يسمى، كما سبق أن أشرنا، الإنسان الكامل.

إن ما نكتشفه هنا، هو رؤية للجسد البشرى ومكانته العظيمة ووجوده الضرورى لإتمام عملية التحول الروحانى للإنسان والتى تتناقض مع ما تدعو إليه بشكل عام الحضارات الحديثة، فالجسد البشرى هو الرحم للوجود السماوى والجانب الظاهر للنص القرآنى الأصلى الخفى، هذا إلى جانب كونه آية من آيات الحكمة والإبداع والجمال الإلهى.

ولن نكون مغالين إذا ذكرنا أن الراقص ومصمم الباليه الفرنسى الشهير «موريس بيجار» قد عرف واعتنق الإسلام عن طريق

الرقص، فهذا الوجد الذى يعيش فيه الصوفى أثناء الرقصة المولوية والذى وصفه جلال الدين الرومى ببراعة وصدق شديين، أو يمثل أيضاً إحدى الرسائل الكبرى التى يمكن للفكر الصوفى أن ينقلها إلى حضارة القرن العشرين؟

ففى عالم يغلب عليه القلق والكآبة سواء فى الغرب أو فى الشرق، هل تستطيع هذه الرسالة الصوفية أن تعيد السعادة البدائية لكل التيارات الروحانية والتى تتلخص ببساطة فى كلمة واحدة هى «الوجود»؟

هوامش وتعليقات

١- راجع الترجمة الفرنسى والإنجليزية للفتوحات المكية بعنوان نصوص مختارة من الفتوحات المكية قام بها Michel Chodkiewicz ص٣٧-٥٧

Les illuminations de la Mecque. The Meccon illuminations - Textes / direction de Michel Choisis, Selected Texts, sous la Chodkiewicz, Paris, Sinbad, 1998, pp37-57

هذه التأملات حول دور اللغة تم تناولها بتوسع فى الدراسة الثرية التى خصصها Denis Grill لعلم الحروف والتى وردت فى مراجع هذه الترجمة.

٢- تاداً إلى ما كتبه فرانز روزنثال Franz Rosenthal عن العلاقة بين الشيخ الأكبر والفلسفة بعنوان «ابن عربى بين الفلسفة والصوفية» ص١٨.

Ibn Arabî between philasoply and Mysticism, orient 31 (1988) P.18.

٣- كان ابن عربى متميزاً فى ذلك، على عكس جميع أصحاب العقيدة الآخرين من الصوفيين بما فيهم تلاميذه وأتباعه، وكان هذا ما لاحظه و نوه عنه James W. Morris فى كتابه بعنوان «بين ابن عربى والترجمة».

Ibn Arabî and its interpreters, Influences and Interpretatins, Journal of the Amercican oriental society, 107 I (1987), p 102.

٤- لن نتوقف كثيرًا هنا لبحث اهمية عقيدة الأسماء الحسنى والتى سبق أن تناولها بالتفصيل William Chittick فى كتابه بعنوان «طريق المعرفة الصوفية» ص١٠-١١-٣٣-٧٦-٢٧٤-٢٧٦ .

The Sufi Path of Knowledge, Albany, state university of New York press, 1989 pp 10-11-33-76-274-276

راجع أيضاً كتاب هنرى كورين بعنوان «الخيال الخلاّق فى صوفية ابن عربى» ص٩٤

L:imagination crèatrice dans le soufisme d'Ibn Arabî, Paris, Flamnarion 1958, p94.

٥- سورة القلم آية ١

٦- سورة البروج آية ٢٢

٧- المكية، الجزء الأول ص٥١، و فى الترجمة ص٤٣٩

٨- كتاب "Paul Kraus" جابر بن حيان، إسهام فى تاريخ الأفكار العلمية فى الإسلام - جابر والعلوم اليونانية" ص٢٢٣-٢٣٦ و ص٢٨٧-٣٠٣ .

Jâbir Ibn Hayyân - contricution a l'historie des idées scientifiques dans l'Islam-Jâbir et la science grecque, Paris, les belles letters, 1986, pp 287-303 et surtout 223-236.

راجع أيضاً كتاب بيير لورى Pierre Lory بعنوان «الكيمياء والروحانيات فى أرض الإسلام» ص١٢١-، ١٥٤

Alchimie et mystique en terre d'Islam, lagrasse, verdier, 1989 pp 121-154

الفتوحات المكية لابن عربى، الجزء الأول ص٥٢ وص٥٦ وص، ١٩٠

٩- الفتوحات المكية، الجزء الأول ص٨٦-٨٧ وص١٠٢-١٠٣ وفى الترجمة ص٤٦١ وص٤٤٨ .

١٠- الفتوحات المكية الجزء الأول ص٣٦٦، هذا الكتاب هو الجوهر الثابت.

١١- الفتوحات المكية، الجزء الأول ص٨٤ وفى الترجمة ص٤٨١.

١٢- النظريات الحروفية راجع كتاب «فى الإسلام الإيرانى» الجزء الثالث ص٢٥٣

En Islam iranien, Gallimard, 1072, vol III p253, à propos des théorics Horoufies.

١٣- وإياك أن تتوهم تكرار هذه الحروف فى المقامات إنها شىء واحد له وجوه دائما فى مثل الأشخاص الإنسانية، فليس زيد بن على هو عين أخيه زيد بن على الثانى وإن كانا قد اشتركا فى البنوة والإنسانية ووالدهما واحد الفتوحات المكية ص٧٨-٧٩.

١٤- «اعلم أيدنا الله وإياك انه كان الوجود مطلقاً من غير تقييد يتضمن المكلف وهو الحق تعالى، والمكلفين وهم العالم، والحروف الجامعة لما ذكرنا، أردنا أن نبين مقام المكلف من هذه الحروف من المكلفين من وجه دقيق محقق، لا يتبدل عند أهل الكشف إذا وقفوا عليه» الفتوحات المكية، الجزء الأول ص٥٢ وفى الترجمة ص٣٩.

١٥- هذا ما قام به البونى كما سبق أن رأينا فى الفصل السابق.

راجع أيضا الفتوحات المكية، الجزء الأول ص١٩٠ والترجمة ص٤٠٨-٤٠٨.

١٦- سورة فاطر آية ١٠.

١٧- فيصير الأمر دورياً دائماً بما أن الكلمات من النفحة الإلهية وتعود إليها لتأتى بالحمد والتسبيح، الفتوحات المكية، الباب العشرون، باب فى العلم العيسوى، ص١٦٨.

راجع أيضاً كتاب René Gunénon بعنوان «الإسلام ودور اللغة» ص٧٧.

L'Yslam et la fonction, Paris, L'oeuvre, 1984, p77.

١٨- الفتوحات المكية، الجزء الأول، ص٥٤ .

١٩- راجع كتاب Michel Chodkiewicz بعنوان «ختم الأولياء» وكتاب «النبوة والولاية فى عقيدة ابن عربى» ص٩٠-٩٤ .

Cf. M. Chodkiewicz, le sceau des Saints-Prophétic et saintcté dans la doctrine d'Ibn Arabî, Paris Gallimerd, 1986, pp90-94.

٢٠- راجع كتاب F. Schuon بعنوان «كيف تفهم الإسلام» ص٥٦.

F. Schuon, Comprendre l'Ysla, Paris, seuil, 1976, p56 .

٢١- راجع ترجمة Michel Chodkiewicz للفتوحات المكية.

وعن الجانب المتجدد دائماً للقرآن، راجع للمؤلف نفسه كتابى «محيط بلا شاطئ» و «ابن عربى الكتاب والقانون» ص٤٦-٥٠ .

Un océan sans rivage, Ibn Arabî, lèvrc et la lio, Seuil, 1992, p46-50.

٢٢- لن نكون مبالغين إذا أكدنا أن ابن عربى فى الفتوحات المكية، لم يتحدث، منذ بداية الكتاب حتى نهايته، سوى عن الولاية ومسالكها وأهدافها. «ختم الولاية» ص٢٦ .

٢٣- الفتوحات المكية، الجزء الثالث ص٤٤١ .

٢٤- الفتوحات المكية، الجزء الأول ص١٣٨ .

٢٥- الفتوحات المكية، الجزء الأول ص٩٩ .

٢٦- Chittick ١٩٨٩ ص ١٠ .

٢٧- الفتوحات المكية، الجزء الأول ص٥٢ وفى الترجمة ص٣٨٧ وص٤٣٩ .

٢٨- الفتوحات المكية، الجزء الثانى ص٣٩٥ .

٢٩- ترجمة الفتوحات المكية ص٤١٠ .

٣٠- الفتوحات المكية، الجزء الثانى ص٢٩٦-٢٩٧ .

٣١- الفتوحات المكية، الجزء الأول ص٨٤ وفى الترجمة ص٤٠٢ .

٣٢- الفتوحات المكية، الجزء الثانى ص٣٩٠ وفى الترجمة ص٤٠٨ وص٤٨١

٣٣- الفتوحات المكية، الجزء الأول ص٥١ وفى الترجمة ص٢٩٢-٢٩٨

٣٤- كتاب الأسفار ١٩٩٤ ص٢٢-٢٣

٣٥- الفتوحات المكية، الجزء الأول ص٥٧

٣٦- كتاب اللمع ص٤٦١

٣٧- كتاب اللمع ص٤٦٤

٣٨- الفتوحات المكية، الجزء الثانى ص٦٤٦

٣٩- الكوان هو أحد طرق الزن، وهو عبارة عن تدرب عقلى يهدف للتخلى عن طرق التفكير العادية للتآلف مع مقاربة أخرى للواقع تتجه نحو لب الأشياء فى تجربة جديدة وهى تجربة اليقظة. (المترجم)

٤٠- الفتوحات المكية، الجزء الأول ص٢

٤١- الفتوحات المكية، الجزء الأول ص٩

٤٢- كتاب الباء ص١١



شكل زخرفى بخط الثُّلث للدعاء "يا عليم بحالى عليك توكلت"

الخاتمة

كنا قد بدأنا هذه الدراسة حول علم الحروف بقصة خلق آدم التى ذُكرت فى القرآن ويقول فيها الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وإذْ قال ربُّك للمَلائكة إنّي جاعلٌ في الأرْض خليفةً قالُوا أتجْعلُ فيها من يُفْسدُ فيها ويسْفكُ الدّماء ونحنُ نُسبّحُ بحمْدك ونُقدّسُ لك قال إنّي أعْلمُ ما لا تعْلمُون ۝٣٠ وعلّم آدم الأسْماء كُلّها ثُمّ عرضهُمْ على الملائكة فقال أنبئُوني بأسْماء هؤُلاء إن كُنتُمْ صادقين ۝٣١ قالُوا سُبْحانك لا علْم لنا إلاّ ما علّمْتنا إنّك أنت العليمُ الحكيمُ ۝٣٢ قال يا آدمُ أنبئْهُم بأسْمائهمْ فلمّا أنبأهُم بأسْمائهمْ قال ألمْ أقُل لّكُمْ إنّي أعْلمُ غيْب السّمٰوات والأرْض وأعْلمُ ما تُبْدُون وما كُنتُمْ تكْتُمُون ﴾ (سورة البقرة آية : ٣٠-٣٣)

إن هذه القصة تعد، فى الواقع، تأسيساً لشرعية ملكة الكلام التى وهبها الله للإنسان مفضلاً إياه بها عن سائر المخلوقات من حيوان ونبات وجماد، وهى المخلوقات النابعة من الكلمة الإلهية التى منحتهم الوجود وحددت مصائرهم، كما حددت مصير الإنسان باعتباره أحد مخلوقات الله.

إلا أن الله قد وهب آدم وذريته نعمًا أخرى جعلتهم يتفوقون بها على سائر المخلوقات. وكانت أولى هذه النعم الروح الإلهية التى بعثت الحياة فى أجسادهم وشكلها الله من صلصال من حمأ مسنون ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (سورة الحجر آية ٢٨-٢٩). ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (سورة السجدة آية ٩). ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (سورة ص آية ٧٢).

وإلى جانب نعمة الروح، وهب الله آدم ملكة معرفة الأسماء. فعندما عصى آدم ربه وقرب الشجرة التى حرم الله عليه أكل ثمارها، تاب إلى ربه بكلمات ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (سورة البقرة آية : ٣٧). وبهذا الشكل يتفوق الإنسان بنعمة الروح وملكة الكلام ليس على سائر المخلوقات الأرضية فحسب بل أيضًا على الملائكة، كما ذُكر فى سورة البقرة.

وإلى جانب ذلك، فقد تلقى الإنسان عن ربه رسالة عليه القيام بها الا وهى المشاركة فى عملية الخلق باعتباره، كما توضح الآيات، خليفة الله على الأرض.

إن تلقى الكلمة والوحى الإلهى الذى يتم عادة بصورة غامضة، وهذا التبادل بين النداء والجواب، أى بين الله الخالق والإنسان

المتكلم، يتخلل التاريخ المقدس كله بجميع من فيه من وجوه مضيئة وهم، كما ذُكر فى القرآن، الأنبياء والرسل.

وهكذا، "ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن... ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة البقرة آية : ١٢٤) وكان موسى كليم الله «وكلم الله موسى تكليماً» ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ (سورة النساء آية : ١٦٤)، وسخر لداوود الجبال والطير ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (سورة الأنبياء آية : ٧٩) وسورة سبأ آية ١٠ وسورة ص ١٨-١٩. كما وهب سليمان معرفة الطير ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ (سورة النمل آية : ١٦). وفى ختام هذا الاستعراض لعملية تلقى الكلمة الإلهية، نجد المسيح ابن مريم الذى ذُكر فى القرآن أنه كلمة الله ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (سورة النساء آية :

١٧١) وفى آية اخرى ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ (٤١) وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (سورة آل عمران آية : الآيات ٣٩ ـ ٤٥)

وكما يتضح من هذه الآيات، فإن المسيح يختلف عن آدم فى أمرين:

الأول أن آدم تلقى الروح الإلهى بنفخة من الله، أما المسيح فهو نفسه الروح الإلهى. أما الأمر الثانى فهو أن آدم قد تلقى كلمات ربه بعد عصيانه، أما المسيح فقد كان نفسه «كلمة الله» حتى قبل مولده، ولا يجب أن ننظر إلى هذه الاصطلاحات من منظور العقيدة المسيحية، فالمسيح هنا هو كلمة من كلمات الله وليس كلمته

الوحيدة لأن مصيره قد تحدد، فيما يبدو، بالكلمة. فقد تكلم المسيح منذ كان فى المهد ليبرئ والدته التى اتهمها الناس بالفاحشة فقال: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ (سورة مريم آية : ٣٠:٣٤). وإلى جانب ذلك، فقد علمه الله الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴾ (سورة آل عمران آية : ٤٨)

وقد اتفق غالبية المفسرين على أن هذه المعرفة التى منحها الله للمسيح منذ مولده، لم تفارقه طيلة حياته، لأن المسيح ظل دائماً منبعًا للكلمة العليا السامية.

ومن هذا المنظور يعتبر علم الحروف «علم عيسوى» كما ذكر ابن عربى فى الباب العشرين من «الفتوحات المكية»[1] فالصوفى مطالب بصورة ما بالجهد والتقرب إلى الله، إلى أن يصبح كالمسيح فيما كان عليه بطبيعة التى جبل عليها.

وإلى جانب ذلك، فالمسيح يشكل وجهاً أخروياً ذا أهمية خاصة. فالنص القرآنى ينكر بوضوح موت المسيح مصلوباً مؤكداً أنه رفع إلى السماء كما ورد فى سورة النساء آية ١٥٧-١٥٨ ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا

قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا (١٥٧) بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما ﴾ وتشير كتب التراث أن المسيح لم يستمر فى دعوته زمناً طويلاً. فقط بضع سنوات قليلة، ولكنها تؤكد أنه سيتم رسالته فى نهاية الزمان. فلسوف يبعث مرة أخرى إلى الأرض ليعيد إلى العالم نظامه وتجانسه وليتم مصير البشرية. بيد أن هذا الدور الأخروى للمسيح لم يُذكر بوضوح فى القرآن. ففى سورة الزخرف آية ٦٢ يقول الله تعالى: ﴿ ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ (سورة الزخرف آية : ٦٢)

إلا أن الأحاديث الشريفة كانت أكثر تفصيلاً لهذا الدور، فقد وصفت كيف سيحل الفساد فى الأرض بين الأجيال الأخيرة للبشرية، وكيف ستعود الوثنية مرة أخرى تحت راية المسيح الدجال، وحينئذ سيُبعث المسيح إلى الأرض وسينزل فى دمشق ليجمع حوله قوات المؤمنين ويحاصر القدس ويقتل المسيح الدجال بيديه، ثم يوحد البشرية تحت لواء الإسلام لفترة من الزمن يحل فيها الأمن على الأرض، وبعد ذلك يموت المسيح ويدفن ويصلى عليه المسلمون، وفى هذه اللحظة، سيحدث الانفجار الكونى الأكبر الذى يدمر الكون معلناً قيام الساعة.

وعلى الرغم من أن هذا الجانب الأخروى من حياة المسيح سيظل دائمًا وأبدًا غامضًا، إلا أنه، فى جميع الأحوال، يشير إلى

ديانة المستقبل التى لن تكون تكرارًا لبدايات الماضى بل ستكون ديانة الإنسان الكامل، فالله كان صامتاً فى جوهره الراسخ المنزه عن الوصف والتعريف، ولكنه أصبح متكلماً عندما خلق الكون وأنشأ فيه عامل الزمن الذى دار فيه الخطاب الإلهى بواسطة القرآن، وسيظل انتشار ما نزل من أجزاء من هذا الكتاب الكونى سارياً حتى حدوث الواقعة التى ستسبق قيام الساعة، حينئذ، سيطوى هذا الكتاب الكونى ويغلق إلى الأبد.

إن ذلك يقودنا إلى اختتام التأملات التى سبق أن أشرنا إليها. ففى العلوم الباطنية الإسلامية، لن يكون الإنسان المكلف بالكلام، سواء مثل آدم تجاه الملائكة أو مثل المسيح تجاه قومه، أى صوفى يعلن عن تجربته الفردية، بل سيكون الإنسان الذى يشارك فى الفعل الإلهى. إن هذا الإنسان هو ولى الله أى الإنسان الذى تمتد بداخله الإرادة الإلهية، وتؤكد العقيدة الصوفية وجود عدد كبير من الأولياء مصنفين طبقاً لمنازل خفية ومهمتهم تنظيم الأمور الروحانية فى الكون، والنموذج المثالى للولى هو الإنسان الكامل الذى خلقه الله فى بداية الخليقة وأمر الملائكة أن يسجدوا له. ويظهر هذا الإنسان الكامل مرة واحدة فى كل جيل من أجيال البشرية ويسمى القطب، وفى غياب هذا القطب، يعم الفساد فى الكون كله لأنه يعتبر كمالاً لعملية الخلق وإليه تمتد كل الغايات الإلهية.

إن الكون فى الأصل ليس سوى آلة ضخمة تنشر صفحات مقدسة من الكتاب الكونى الأعظم، وجميع المخلوقات فى سباق محموم لتحقيق هذا الهدف حتى أكثرهم تواضعاً وأكثرهم - مع المفارقة - ضلالاً وشرورًا. إنها حقاً عملية كيميائية واسعة النطاق. فالبشرية كلها تتسابق لتحقيق هدف غامض ومجهول، أو لنقول لاكتشاف الإكسير أو حجر الفلاسفة مجهول الخصائص، وكانت المادة الأولى فى هذا الحجر جسد آدم الذى شكله الله من صلصال من حمأ مسنون، أما اكتمال التكوين فلن يتم إلا بظهور الروح العيسوى. وبين الحدثين، فالصناع مستمرون فى دأب، يوماً بعد يوم، فى أعمالهم المتواضعة مسلمين بأقدارهم إلى الصانع الأعظم الخفى، ويشكل مجموع هذه الأعمال الصغيرة المقدسة حرفاً بعد حرف، وصفحة بعد صفحة، الكتاب الكونى الأعظم وهو الخلق.

* * *

هوامش وتعليقات

١- الفتوحات المكية، الجزء الأول ص١٦٧ .

تمت ترجمة هذا الكتاب ونشره فى كتاب M. Vâlsan بعنوان «الإسلام ووظيفة اللغة لرينيه جينون»

M.Vâlsan, L'Islam et la fonction de René Guénon, Paris Les Editions de L'Oeuvre, 1984, p.p73-82.

المراجع الأجنبية

- ADDAS CLAUDE. *Ibn Arabî ou La quête du Soufre Rouge*. Paris. Gallimard, NRF, 1989.
- CANTEINS Jeans. *Phonèmes et archétypes*. Paris, G.P. Maïsonneuve et La Rose, 1972.
- CHITTICK WILLIAM. *The Sufi Path of knowledge*. Albany, S.U.N.Y. Press, 1989.
- CHDKIEWICZ Michel. *Un océans sans ravage - Ibn Arabî, le Livre et la Loi*. Paris. Seuil, La librairie du XXe siècle, 1992.
- CORBIN Henry. *L'Alchimie comme art hiératique* Paris, L'Herne, 1986.
- GUENON René, *Aperçu sur l'ésotérisme islamique et le Taoïsme*, Paris, Gallimard, 1973.
- HALIM Heinz. *Kosmologie und Heilslebre der früben Ismüâ'îliyya, Wiesbaden*, 1978.
- KRAUS Paul. *Jâbir ibn Hayyân - Contibution à l''histoire des idées scientifique dans l'Islam* - Jâbir et la science gracque, Le Caire 1942. rééd. Paris, Les Belles Letters, 1986.

المراجع العربية

- احمد بن على بن يوسف البونى، «شمس المعارف ولطائف العوارف»، القاهرة، مطبعة مصطفى محمد.
- عبد الحميد حمدان، «علم الحروف وأقطابه»، القاهرة، مكتبة مدبولى، ١٩٩٠.
- ابن عربى، الفتوحات المكية، القاهرة، ١٩١١م ١٣٢٩هـ. وقام بترجمتها إلى الإنجليزية والفرنسية Michel CHDKIEWICZ، ١٩٨٨.
- ابن عربى، «كتاب الباء»، القاهرة، مكتبة القاهرة، ١٩٥٤.
- ابن عربى، «كتاب الميم والواو والنون»، بيروت، البراق، ٢٠٠٢ .
- ابن مسرة الجبلى، «كتاب خواص الحروف وحقائقها وأصولها»، م ك جعفر من قضايا الفكر الإسلامى، القاهرة، ١٩٧٨ .
- احمد بن المبارك، «الإبريز من كلام سيدى الغوث عبد العزيز الدباغ»، الجزء الثانى، محمد الشماع، دمشق، ١٩٨٦ .
- ابن سينا، «الرسالة النيروزية فى معانى الحروف الحجازية» فى رسائل فى كتاب الحكمة والطبيعيات، القاهرة، ١٩٠٨ .

- عبد الباقي مفتاح، «مفاتيح فصوص الحكم لابن عربي»، مراكش، دار الكتب الزرقاء، ١٩٩٧ .

- القشيري، «نحو القلوب الصغير»، تونس، الدار العربية.

- أبو نصر السراج، «كتاب اللمع» القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٦٠ .

- سهل التستري، «رسالة الحروف»، م.ك جعفر، القاهرة، ١٩٧٤ .

الفهرس

المقدمة ٧

الفصـل الأول: كلمة الله وعلم المخلوقات السماوية ٢٩

الفصل الثانى: علم الحروف فى أرض الإسلام ٥٧

الفصل الثالث: الشيعة وعلم الحروف ٩٥

الفصل الرابع: علم الحروف والفلسفة

«ابن سينا والصوفية» ١٢١

الفصل الخامس: علم الحروف والسحر

«سحر الحروف فى شمس المعارف للبونى»....... ١٤١

الفصل السادس: ابن عربى ١٧٩

الخاتمة.. ٢١٥

المراجع ٢٢٥